دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الغرور والكبر في ضوء القرآن الكريم
المؤلف الرئيسي:	إبراهيم، منال ميرغني محمد
مؤلفين آخرين:	الحسن، فوزية أحمد(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2009
موقع:	أم درمان
الصفحات:	1 - 266
رقم MD:	562146
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة دكتوراه
الجامعة:	جامعة أم درمان الاسلامية
الكلية:	كلية أصول الدين
الدولة:	السودان
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	الغرور في القرآن، التكبر في القرآن، الوعظ والارشاد
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/562146

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الفصل الثاني
أشكال وسمات الغُرور والكِبرْ

وبه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أشكال الغُرور والكبر.

المبحث الثاني: سمات الغرور والكِبرْ.

المبحث الثالث: نماذج للذين صرفهم الكبر عن إتباع الحق.

المبحث الأول
أشكال الغُرور والكِبرْ

وبه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الغُرور بمتاع الحياة الدنيا.

المطلب الثاني: استضعاف الآخرين.

المطلب الثالث: الغُرور بالنفس.

المطلب الأول
الغُرور بمتاع الحياة الدنيا

إن متاع هذه الحياة الدنيا قليل، وقد كشف الله تعالى عن هذا في كثير من آيات القرآن الكريم. ومما يتحدث به القرآن الكريم عن هذه الحياة الدنيا أن البقاء فيها قليل وإلى زوال، وذلك هو واقع هذه الحياة المشهودة، سواء المؤمنون بالله والحياة الآخرة أو الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

وقد مثل القرآن الكريم مختلف زينات الحياة الدنيا ولذاتها بالنبات الذي يخضر فترة قصيرة من الزمن ثم يصفر ثم يكون حطاماً فليس من شأن المؤمن العاقل أن يعلق كل همه بها ويتحمل ما تجره ورائها من عواقب مؤلمة(١).

قال تعالى ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾(٢).

قال الإمام الرازي(٣): (في الآية مسائل: المسألة الأولى: المقصود الأصلي من الآية تحقير حال الدنيا وتعظيم حال الآخرة فقال الدنيا لعب ولهو وزينة، والآخرة عذاب شديد دائم، أو رضوان الله على سبيل الدوام ولا شك أن ذلك عظيم، المسألة

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حينكة الميداني، ٧٧٠/٢.

(٢) سورة الحديد، الآية (٢٠).

(٣) الرازي العلامة ذو الفنون محمد بن عمر بن الحسن بن علي التميمي البكري الطبرستاني فخر الدين المعروف بابن الخطيب الشافعي، الفقيه، ولد بالري سنة (٥٤٤هـ-٦٠٤هـ)، له من التصانيف الكثير، انظر: هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا البغدادي، ط١، ١٩٥١م، وكالة استنابول، ١٠٨/٣.

الثانية: أعلم أن الحياة الدنيا حكمة وصواب ولذلك لما قال تعالى ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1] قال ﴿ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2] ولولا أنها حكمة وصواب لما قال ذلك، لأن الحياة خلقه كما قال تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾[3] وأنه لا يفعل العبث على ما قال﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾[4])[5].

وفي تفسير قوله (لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ) ذهب المفسرون إلى عدة أقوال:

قال قتادة[6]: لعب ولهو: أكل وشرب، قال مجاهد[7]: كل لعب لهو، وقيل: اللعب ما رغب في الدنيا واللهو ما ألهى عن الآخرة، وقيل اللعب الاقتضاء واللهو النساء.

وزينة ما يتزين به، فالكافر يتزين للدنيا ولا يعمل للآخرة، وكذلك من تزين في غير طاعة الله، قال بعض المتأخرين: لعب كلعب الصبيان، ولهو كلهو الفتيان،

---

(١) سورة البقرة، الآية (٣٠).

(٢) سورة البقرة، الآية (٣٠).

(٣) سورة الملك، الآية (٢).

(٤) سورة المؤمنون، الآية (١١٥).

(٥) تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتح الغيب، للإمام محمد الرازي فخر الدين بن العلامة ضياء الدين الشهير بخطيب الري (٥٤٤هـ-٦٠٤هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، ٢٣٣/٢٩/١٥-٢٣٤.

(٦) قتادة بن دعامة السدوسي، يكنى أبا الخطاب، كان يختم القرآن في سبع ليالي مرة، كان يرسل الحديث عن الشعبي ومجاهد وسعيد بن جبير والنخعي وغيرهم، توفي سنة سبع عشرة ومائة، انظر: صفة الصفوة، ابن الجوزي (٥١٠هـ-٥٤٧هـ)، حققه محمود فاخوري، خرج أحاديثه محمد رواس، دار المعرفة، بيروت، ٢٥٦/٣.

(٧) مجاهد بن جبير أبوالحجاج المكنى بمولى بني مخزوم، تابعي، شيخ المفسرين والقراء، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، ولد سنة ٢١هـ، وأخذ التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما، تنقل في الأسفار واستقر بالكوفة ويقال أنه مات وهو ساجد، انظر: سير أعلام النبلاء، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت:٧٤٨هـ-١٣٧٤م)، ط١(١٤٠٩هـ-١٩٨٨م)، مؤسسة الرسالة، ٤٤٩/٤، الأعلام١٦٩/٦.

وزينة كزينة النسوان، وتفاخر كتفاخر الأقران، وتكاثر كتكاثر الدهقان[١]، والمعنى أن هذه الحياة الدنيا كهذه الأشياء في الزوال والفناء[٢].

وإلى هذا المعنى ذهب الرازي في تفسيره[٣].

وعن علي بن أبي طالب[٤] قال لعمر: (لا تحزن على الدنيا فالدنيا ستة أشياء مأكول وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة، وأكثر شرابها الماء ويستوي فيه جميع الحيوانات، وأفضل ملبوسها الديباج[٥] وهو نسج دودة، وأفضل المشموم المسك وهو دم فأرة، وأفضل المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال، وأما المنكوح فالنساء وهو حبال في حباك[٦]، والله إن المرأة لتزين أحسنها يراد به أقبحها، ثم ضرب الله لها مثلاً بالزرع في الغيث)[٧].

(وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ) أي يفخر بعضكم على بعض بها وقيل بالخلقة والقوة وقيل بالأنساب على عادة العرب في المفاخرة بالآباء، وصح عن النبي صلى

---

(١) الدهقان: بالكسر: القوي على التصرف مع جدة، والتاجر، وزعيم فلاحي العجم، ورئيس الإقليم، ودهقنوه جعلوه دهقاناً، المعجم الوسيط، ص٤٢٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، المتوفي سنة(٦٧٠هـ-١٢٧٣م)، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، لبنان، مكتبة الغزالي، دمشق، ٢٥٤/٧-٢٥٦.

(٣) انظر: تفسير الفخر الرازي٢٣٣/٢٩/١٥.

(٤) علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هشام بن عبد مناف بن قصي القرشي الهاشمي، يكنى أبا الحسن واسم أبيه أبا طالب عبد مناف، وكان يقال لعبدالمطلب شيبة الحمد، وأمه فاطمة بنت أسد بن هشام بن عبد مناف، وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي، أول من أسلم من الرجال، وهو أول من صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي كان لواءه معه في كل زحف، وهو الذي غسله وأدخله قبره، انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبوعمرو يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر (ت:٤٦٣هـ)، تحقيق علي محمد معوفي، عادل عبدالمعرى، قدم له محمد عبدالمنعم البري، وجمعه طاهر النجار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢(١٤١٥هـ-١٩٩٥م)، ١٩٧/٢.

(٥) الديباج: النقش جمع ديابج المربج المزين به، والقبيح الخلقة وضرب من إلهام، القاموس المحيط، ص٢٣٩.

(٦) الحبك: الشدّ والإحكام وتحسين أثر الصنعة في الثوب، يحبكه ويحبك فهو حبيك واحتبك بإزاره أقسى، والحبل يشد به على الوسط وتحبك تلفف بثيابه، والمرأة بنطاقها والحبل شد به على الوسط، المعجم الوسيط، ص٤٠٩.

(٧) الجامع لأحكام القرآن٢٥٥/٧.

الله عليه وسلم أنه قال: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية الفخر في الأحساب وتكاثر في الأموال والأولاد...)[1]، فهي مفاخرة بينهم بالصفات الفانية الزائلة تفاخر بالنسب وبالقدرة والقوة وكلها ذاهبة وهذا ما ذهب إليه المفسرون[2].

وهذه عادة الجاهلية التكاثر بالأبناء والأموال وتكاثر المؤمنين لابد أن يكون بالإيمان والطاعة.

(كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ) كمثل مطر وفي الكفار قولان:

الأول: الكفار بمعنى الزراع قاله ابن مسعود، وقال الأزهري[3]: العرب تقول للزارع كافر لأنه يكفر البذر الذي يبذره بتراب الأرض. الثاني: أن المراد بالكفار في هذه الآية الكفار بالله عزّ وجل وهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا وحرثها من المؤمنين[4].

يقول الطبري[5]: (اعلموا أيها الناس أن الحياة الدنيا المعجلة لكم ما هي إلا لعب ولهو تتفكهون به، وزينة تتزينون بها، وتفاخر بينكم، يفخر بعضكم على بعض بما أول فيها من رياشها وتكاثر في الأموال والأولاد ويباهي بعضكم بعضاً بكثرة الأموال والأولاد؛ كمثل ذلك النبات الذي يهيج ثم ييبس فتراه مصفراً بعد أن كان

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، ١١-كتاب الجنائز، ١٠-باب التشديد في النياحة، حديث رقم٢٩٤، ٦٤٤/١

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي٢٣٣/٢٩/١٥، جامع البيان٤٣٢/٢٧/١٣، الجامع لأحكام القرآن٢٥٥/٧.

(٣) الأزهري محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة بن نوح بن الأزهر بن نوح بن حاتم الأزهري، الهروي، الشافعي، أبومنصور، أديب، لغوي، ولد في هراة بخراسان (٣٨٢هـ-٧٩٥م)، عنى بالفقه والعربية، رحل في طلب العلم، توفي بهراة في ربيع الأول (٤٣٠هـ-٩٨٠م)، له عدة تصانيف منها تهذيب اللغة، التقريب في التفسير، وغيرها، انظر: معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة٤٧/٣.

(٤) تفسير الرازي٢٣٤/٢٩/١٥.

(٥) الطبري هو أبوجعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد بن كثير، أبوجعفر الطبري الآملي البغدادي المولد والوفاة، ولد سنة ٢٢٤هـ، وتوفي سنة٣١٠هـ، صنف من الكتب الكثير منها: تاريخ الرجال، جامع البيان، تاريخ الأمم والملوك، انظر: هدية العارفين في أسماء المؤلفين والمصنفين، إسماعيل باشا البغدادي، ٢٦/٢.

أخضراً ونضراً، ثم يكون حطاماً. وفي الآخرة عذاب شديد للكفار ومغفرة لأهل الإيمان. عن أبي هريرة[١] رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها)[٢])[٣].

يقول المراغي[٤] في الآية: (وهذا وصف حال الدنيا وسرعة زوالها وتقضيها وضرب لذلك مثل الأرض ينزل عليها المطر فتنبت الزرع البهيج الناضر الذي يعجب الزراع لنمائه وجودة غلته، وبينما هو على تلك الحال فإذا به يصفر بعد النضرة والخضرة، ويجف ثم يتكسر ويتفتت، وما الحياة الدنيا إلا مزرعة الآخرة فمن أجاد زرعه حصد وربح ومن توان وكسل ندم ولات ساعة مندم)[٥].

توجيه الآية القرآنية:

---

(١) أبوهريرة الإمام، الفقيه، المجتهد، الحافظ، صاحب رسول الله عليه وسلم، أبوهريرة الدوسي، اليماني، سيد الحفاظ الأثبات، اختلف في اسمه على أقوال جمة أرجحها عبدالرحمن بن صخر، وأبيه هو عمير بن عامر بن ذي الشري بن طريف، حمل عن النبي صلى الله عليه وسلم علماً كثيراً لم يلحق في كثرته، روى عن أبي بكر وعمر وأسامة وعائشة، حدث عنه خلق كثير من الصحابة والتابعين، سير أعلام النبلاء، الذهبي٣/٥٧٨.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده، حديث رقم٩٦٢٤، ٣/٤٣٣، والهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، ط١(١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٠/٤١٥.

(٣) جامع البيان، الطبري١٣/٢٧/٢٣٢.

(٤) المراغي: أحمد بن مصطفى المراغي، مفسر مصري، من العلماء، تخرج بدار العلوم سنة١٩٠٩م، ثم كان مدرس الشريعة الإسلامية، وولي نظارة بعض المدارس، وعين أستاذاً للعربية والشريعة الإسلامية بكلية غردون بالخرطوم، توفي بالقاهرة سنة (١٣٧١هـ–١٩٥٢م)، له كتب منها: الحسبة في الإسلام والوجيز في أصول الفقه وتفسير المراغي، الأعلام١/٢٥٨.

(٥) تفسير المراغي، الأستاذ أحمد مصطفى المراغي، ط٣(١٣٨٣هـ–١٩٦٣م)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ٩/٢٧/١٧٦–١٧٩.

التحذير من الاغترار بالحياة الدنيا وهذا قول الجزائري[١]: (اعلموا أيها الناس أن الإقبال على الدنيا هو سبب الغفلة عن الآخرة ومتطلباتها من الذكر والعمل الطيب، فهي لعب ولهو وهي أمور خيالية قليلة النفع، سريعة الزوال، فلا تغتروا بها، أنصح لكم بذلك، فاللهو كاللعب لا يخلفان منفعة تعود على اللاهي اللاعب، والزينة سرعان ما تتحول وتتغير وتزول، والتفاخر بين المتفاخرين مجرد كلام ما وراءه طائل أبداً، والتكاثر لا ينتهي إلى حد، ولا يجمع إلا بالشقاء والنصب والتعب، ثم يذهب فلا بقاء له ولا دوام وله تبعات لا ينجو منها صاحبها إلا برحمة من الله)[٢].

قال الدكتور يوسف القرضاوي[٣]: (إن أخطر شيء على أخلاق الناس هو هذه الحياة الدنيا بمتاعها وزخارفها وشهواتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسوَّمة[٤] والأنعام والحرث، وأن الغلو في حب الدنيا هو رأس كل خطيئة والتنافس عليها أساس كل بلية، من أجل متاع الدنيا يبيع الأخ أخاه ومن أجل متاعها يخون الناس الأمانات وينكثون العهود، ويجحدوا بالحقوق، ويتجبر الرؤساء ويستكبرون ويجور القضاة ويرتشون، إن حب الحياة والأمل فيها جزء من فطرة الإنسان ولولا ذلك ما عمرت الأرض ولا ترعرعت شجرة الحياة، فلم يكن ينافي الحكمة أن يزين للناس حب الشهوات، ولكن الخطر أن

---

(١) الجزائري غلبت عليه الكنية، فعرف بأبي بكر الجزائري، هو أبوبكر موسى بن عبدالقادر بن جابر، ولد بقرية ليوة في الجزائر في ١٩٢١هـ، حفظ القرآن مبكراً، وعمل مدرساً في إحدى المدارس الأهلية، ثم هاجر إلى الحجاز طلباً للعلم، حصل على إجازة من رئاسة القضاء بمكة للتدريس في المسجد النبوي، ولازال يقوم بهذه المهمة، انظر: علماء ومفكرين عرفتهم، محمد المجذوب، دار النفائس، ط٤(١٣٩٧هـ-١٩٧٧م)، ص٢٥.

(٢) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير المسمى بتفسير الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة،٣/٣٢٩.

(٣) د.يوسف القرضاوي هو يوسف عبدالله القرضاوي، يكنى أبا محمد، ولد في التاسع من الشهر التاسع من عام ستة وعشرين وتسعمائة وألف للميلاد في قرية ضعط التراب من توابع المحلة الكبرى، من أسرة متدينة رقيقة الحال، حفظ القرآن وهو صغير، والتحق بالأزهر بعد تخرجه من معهد طنطا، ثم رحل إلى القاهرة للدراسات العليا بكلية أصول الدين، وحصل على الدكتوراه في١٩٧٣م، انظر: علماء ومفكرين عرفتهم، ص٤٣٩.

(٤) المسوَّمة: المرعية المرسلة مطلقة، والمعلّم بعلامة يعرف بها، المنجد في اللغة والأعلام، ص٣٦٥.

يغرق الناس فيها وتكون أكبر همهم، شأن أولئك الذين لا يرجون لقاء الله ولا يؤمنون بيوم الحساب)[1].

من لطائف الآية القرآنية:

يقول القشيري[2]: (الحياة الدنيا معرضة للزوال غير لابثة ولا ماكنة وهي في الحال شاغلة عن الله، مطمعة غير مشبعة، وتجري على غير سنن الاستقامة كجريان لعب الصبيان، فهي تلهي عن الصواب واستبصار الحق، فالدنيا حقيرة وأحقر منها قدراً طالبها، وأقل منه خطراً المزاحم فيها فما هي إلا جيفة وطالب الجيفة ليس له خطر وأخس أهل الدنيا من بخل بها وهذه الدنيا المذمومة هي التي تشغل العبد عن الآخرة)[3].

ونذهب من خلال تفسير الآية القرآنية إلى أن هذا المثل قد هون أمر الدنيا وحقرها، وكشف عن حقيقتها فهي ليست إلا محقرات من الأمور وهي: اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر، ولكل ذي لب يتأمل هذه الكلمات وينظر ماذا ينفع بعد الرحيل عن هذه الدنيا أما الدار الآخرة فما هي إلا أمور عظام وهي العذاب الشديد والمغفرة والرضوان من الله عزّ وجل، فلنتأمل الحالين ونتدبر المصيرين وننظر بعين الحكمة والبصيرة إلى هذين الأمرين المتقابلين ونبادر إلى السعي فيما ينجينا من العذاب الشديد ويجعلنا أهلاً لرضوان الله عزّ وجل.

وفي الشعر كقول الشاعر:

---

(١) الإيمان والحياة، د.يوسف القرضاوي، الناشر مكتبة وهبة، القاهرة، ص٢٠٥-٢٠٦.

(٢) القشيري الشافعي أبوالقاسم عبدالكريم بن هوازن عبدالملك القشيري النيسابوري الشافعي، صوفي، مفسر، فقيه، أصولي، محدث، متكلم، واعظ، أديب، ناثر، ناظم، ولد في ربيع الأول، وتوفي بنيسابور في ١٦ربيع الآخر سنة٤٦٥هـ، من تصانيفه: التيسير في التفسير، حياة الأرواح، الدليل إلى طريق الصلاح، الرسالة القشيرية في الصرف، الفصول في الأصول، لطائف الإشارات، وغيرها، معجم المؤلفين٢/٢١٢.

(٣) تفسير القشيري المسمى لطائف الإشارات، للقشيري، وضع حواشيه وعلق عليه عبداللطيف حسن عبدالرحمن، ط١(١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م)، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ، ٣/٢٩٠.

إذا أبقيت الدنيا على المرء دينه ** فما فاته منها فليس بضائر

فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة ** ولا وزن ذر من جناح الطائر

فما رضى الدنيا ثواباً لمؤمن ** ولا رضى الدنيا جزاء لكافر[1]

وهنالك الكثير من الآيات التي تحذر من الاغترار بهذه الدنيا منها قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾[2]، في الآية القرآنية نداء لكل البشر يدعوهم فيه ربهم تعالى ناصحاً لهم بأن يتقوه بالإيمان به وبعبادته وحده لا شريك له، وأن يخشوا يوماً عظيماً فيه من الأهوال والعظائم ما لا يغادر قدره بحيث لا يجزى والد عن ولده ولا مولود وهو جاز عن والده شيئاً؛ إذ أن كل واحد لا يريد إلا نجاة نفسه فيقول نفسي وهذا لشدة الهول، يوم لا يغني أحد عن أحدٍ شيئاً ولو كان أقرب قريب وهو يوم آت لا محالة حيث وعد الله به الناس قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾[3] فوعده الحق[4].

الآية توضح هول اليوم الذي يقطع أواصر الرحم والنسب، ويشغل الوالد عن الولد ويحول بين المولود والوالد، وتقف كل نفس وحيدة فريدة ومجردة من كل عون ومن كل سند، موحشة من كل قربى ومن كل وشيجة[5] فالهول هنا

---

(١) الأبيات في أمثال ونماذج بشرية من القرآن الكريم، تأليف أحمد بن محمد طاحون، ط٢(١٤١٣هـ-١٩٩٣م)، ٢٧٣/١.

(٢) سورة لقمان، الآية (٣٣).

(٣) سورة الرعد، الآية (٣١).

(٤) أيسر التفاسير لكلام العي الكبير، الجزائري٩٩٨/٢١-٩٩٩.

(٥) وشيجة: جمع وشائج، والوشيج: اشتباك وتلاحم القرابة والرحم، وشائج ليف يفتل ثم يشبك بين خشبتين فينقل عليه البر المحصود ونحوه، انظر: المنجد، ص٩٠١.

هول نفسي يقاس بمداه في المشاعر والقلوب فلا يجزى أحد عن أحد ولا ينفع أحد إلا عمله وكسبه وما هذا كله إلا للهول فيما ألفه الناس[1].

وأقول: أي ليس بمغن أحدهما عن الآخر شيئاً لانقطاع الوصل في ذلك اليوم الرهيب.

قال أبوالسعود[2]: (وتغيير النظم في الثانية للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزى، وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة، ووعده حق بالثواب والعقاب لا يمكن إخلافه فلا يغرنكم الشيطان)[3].

وفي ذكر الوالد والولد لطائف أوردها الرازي في تفسيره:

الأولى: أن من الأمور ما يبادر الأب إلى التحمل عن الولد كدفع المال وتحمل الآلام، والولد لا يبادر إلى تحمله عن الوالد، ومنها ما يبادر الولد إلى تحمله في دفع الآلام، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً في دفع الإهانة.

الثانية: نقول الابن من شأنه أن يكون جازياً عن والده لما له عليه من الحقوق والوالد يجزى لما فيه من الشفقة وليس بواجب عليه ذلك فقال في الوالد لا يجزى وقال في الولد: (ولا مولود هو جاز)[4].

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فلا يخلف ولا يتخلف ولا مفر من مواجهة هذا الهول العصيب ولا مفر من الحساب الدقيق والجزاء العادل.

---

(١) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، للإمام العلامة محمد جمال الدين القاسمي (ت:١٣٣٢هـ-١٩١٢م)، ضبطه وصححه وخرج أحاديثه وآياته محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٣٩/٨.

(٢) أبوالسعود محمد بن محمد بن مصطفى الصحاوي، المولى أبوالسعود، مفسر وشاعر، من علماء الترك المستعربين، ولد بالقرب من القسطنطينية (٨٩٨هـ-١٤٩٣م)، وأضيف إليه الإفتاء سنة٩٥٢هـ، حاضر الذهن، سريع البديهة، صاحب التفسير المعروف باسمه، وله عدة مؤلفات: تحفة الطلاب في المناظرة، رسالة في المسح على الخفين، شعره جيد، انظر: الأعلام٥٩/٧.

(٣) تفسير أبوالسعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد الصاوي ٨٩٨هـ، صححه الشيخ حسن محمد السعودي، التزام محمد محمد عبداللطيف، ط١(١٣٤٧هـ-١٩٢٨م)، الطبعة المصرية، ١٩٥/٥.

(٤) تفسير الفخر الرازي٦٤/٢٥/١٣.

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا) يشير سيد قطب[١] إلى متاع يلهي أو شغل ينسي أو شيطان يوسوس في الصدور، مشيراً إلى أن الشياطين كثير: الغرور بالمال شيطان، ودفعة الهوى شيطان، والغرور بالعلم شيطان، وبالعمر شيطان والغرور بالقوة والسلطان شيطان، والعاصم من كل غرور تقوى الله[٢].

ويتفق جميع المفسرين على أن المقصود بالغرور في الآية الشيطان[٣].

وقال سعيد بن جبير[٤]: الغرة بالله أن يعمل المعصية ويتمنى المغفرة[٥].

وفي الغرور بمعنى الشيطان ورد ما يطابق المعنى في آية أخرى قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾[٦].

وفي الآية: يا أيها الناس إن وعد الله إياكم بأسه على إصراركم على الكفر به وتكذيب رسوله صلى الله عليه وسلم وتحذيركم نزول سطوته بكم على ذلك حق،

---

(١) سيد قطب بن إبراهيم، ولد سنة (١٣٢٤هـ-١٩٠٦م)، مفكر إسلامي مصري، من مواليد قرية موشا في أسيوط، تخرج بكلية دار العلوم بالقاهرة سنة (١٣٥٣هـ -١٩٣٤م)، وعمل في جريدة الأهرام، وكتب في مجلتي الرسالة والثقافة، وعين مدرساً للعربية، ثم موظفاً في ديوان وزارة المعارف، ثم مراقباً فنياً للوزارة، أوفد في بعثة للدراسة في أمريكا (١٩٤٨م-١٩٥١م)، أعدم عام١٩٦٦م، انظر: الأعلام١٤٧/٣.

(٢) في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ٢٧٩٨/٥.

(٣) انظر: جامع البيان١٦٦/٢٢/١٣، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، ط١(١٤٢١هـ-٢٠٠٠م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٥٣٠/٢١/٦، تفسير القاسمي٣٩/٨، أيسر التفاسير٩٩٨/٢، الظلال٢٧٩٨/٢١/٥.

(٤) سعيد بن جبير بن هشام، الإمام، الحافظ، المقرئ، المفسر الشهير، أبومحمد، ويقال أبوعبدالله الأسدي، الوالي، مولاهم الكوفي، أحد الأعلام، روى عن ابن عباس فأكثر وجود وعن عبدالله بن المفضل وعن عائشة وعدي وابن أبي حاتم وأبوهريرة وأبي سعيد الخدري وغيرهم، وروى عنه التابعين وكان من كبراء العلماء، قرأ القرآن على ابن عباس، سير أعلام النبلاء٣٢٢/٤.

(٥) انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور٥٣٠/٢١/٦، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام الحسن برهان الدين أبي الحسن إبراهيم البقاعي (ت:٨٨٥هـ-١٤٨٢م)، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، ط٢، دار المعارف العثمانية، ط١(١٣٩٩هـ-١٩٧٦م)، بمساعدة وزارة الشئون الثقافية،٢١٤/١٥.

(٦) سورة فاطر، الآية (٥).

فأيقنوا بذلك وبادروا حلول عقوبتكم بالتوبة والإنابة إلى طاعة الله والإيمان به وبرسوله.

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا) يقول الطبري: (فلا يغرنكم ما أنتم فيه من العيش في هذه الدنيا ورئاستكم التي تترأسون بها على ضعفائكم فيها عن إتباع محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به **(وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ)** يقول ولا يخدعنكم بالله الشيطان فيمنيكم الأماني ويعدكم من الله العدات الكاذبة ويحملكم على الإصرار على كفركم بالله)[1].

وهذا ما اتفق عليه المفسرون كابن عباس[2] والرازي والقرطبي[3] وابن كثير في تفسيره وغيرهم[4].

من توجيه الآية القرآنية:

التحذير من الاغترار بزينة الحياة الدنيا والتحذير من الشيطان، أي من إتباعه والاغترار به بتزيينه وتحسينه للمعاصي[5].

والآية نزلت في مشركي قريش[1].

---

(١) جامع البيان، الطبري١٣/٢٢/١٦٦.

(٢) ابن عباس: عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه، الإمام الحبر، عالم العصر، أبوالعباس الهاشمي، ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وأبوالخلفاء، دعا له النبي صلى الله عليه وسلم أن يفقهه الله في الدين ويعلمه التأويل، وقال ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس لو أدرك أسناننا ما عاشره أحد منا، توفي بالطائف سنة٦٨هـ، صلى عليه محمد بن الحنيفة وقال: اليوم مات ربانيّ هذه الأمة رضي الله عنه، انظر: تذكرة الحفاظ، ١/٣٣.

(٣) القرطبي: محمد بن أحمد بن محمد بن يحيى بن مفرج الأموي، مولاهم القرطبي المعروف، والده القنتوري، أبوعبدالله، محدث، حافظ، فقيه، رحل إلى الأندلس في المشرق فزار غزة وعسقلان وطبرية ودمشق وطرابلس والشام وبيروت وكثير من البلاد وعاد إلى الأندلس، وكان وافر الحرمة عند صاحب الأندلس، صنف عدة كتب، توفي ودفن بمقبرة الربض سنة٦٧٠هـ، معجم المؤلفين١٠٨/٣.

(٤) انظر: جامع البيان١٣/٢٢/١٦٦، تفسير الفخر الرازي١٣/٢٥/١٦٤، الجامع لأحكام القرآن٧/١٤/٢٠٥، تفسير القرآن العظيم٣/٥٥٥.

(٥) أيسر التفاسير ٢/٩٩٩.

ومما لا شك فيه أن لا نفع في يوم الفصل لرحم ولا قرابة قال تعالى ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[٢].

يقول تعالى ذكره: لا يدعونكم أرحامكم وقراباتكم وأولادكم إلى الكفر بالله واتخاذ أعدائه أولياء تلقون إليهم بالمودة، فإنه لن ينفعكم أرحامكم ولا أولادكم عند الله يوم القيامة، فترفع عنكم عذاب الله يومئذ إن أنتم عصيتموه في الدنيا وكفرتم به **(يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ)** بأن يدخل أهل طاعته الجنة وأهل معاصيه والكفر به النار[٣].

اختلف القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء المدينة[٤] ومكة[٥] والبصرة[٦] (يُفصَل بينكم) بضم الياء وتخفيف الصاد وفتحها، على ما لم يسم فاعله وقرأه عامة

---

(١) أسباب النزول، علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري الواحدي، تحقيق أيمن صالح شعبان، ط٤(١٤١٩هـ-١٩٩٨م)، دار الحديث، القاهرة، طبع ونشر وتوزيع، ص٧٨.

(٢) سورة الممتحنة، الآية (٣).

(٣) جامع البيان١٤/٢٨/٦١.

(٤) المدينة: يثرب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم في الإقليم الثاني وهي حرة سبخة الأرض ولها نخل كثير ومياه وتسقي نخيلهم من الآبار ولها سور والمسجد وسطها، وقبر النبي صلى الله عليه وسلم في شرق المسجد، وبها قبر أبي بكر وعمر والروضة أمام المنبر، وأُحد جبل في شمال المدينة وهو أقرب جبل إليها، ولها عدة أسماء منها طيبة ويثرب وقباء، انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي٥/٨٢.

(٥) مكة: بيت الله الحرام في الإقليم الثاني يقال مكة اسم المدينة وبكة اسم البيت، وقيل سميت مكة لقول العرب في الجاهلية: لا يتم حجنا حتى نأتي الكعبة فنمك فيها؛ أي نصفر صفير المكاء حول الكعبة، وقيل لأنها بين جبلين مرتفعين عليها، لها عدة أسماء منها مكة وأم القرى ومعاد والبيت العتيق والحرم والبلد الأمين، ومن فضائلها أنه من دخلها كان آمناً، معجم البلدان٥/١٨١.

(٦) البصرة: في كلام العرب الأرض الغليظة التي فيها حجارة تقلع وتقطع حوافر الدواب، وسميت بذلك لغلظتها وشدتها، وهي بالعراق في الإقليم الثالث، أراد عمر بن الخطاب أن يتخذ للمسلمين مصراً فدلوه على البصرة، ولاها عمر عتبة بن غزوان بن جابر بن وهب، أحد بني مازن، وكانت تسمى بالأبلة، وتمصيرها كان في ١٤هـ، وبينها وبين المدينة نحو عشرين مرحلة، وإليها ينسب عدد لا يحصى من أهل العلم، معجم البلدان١/٤٣٠.

قراء الكوفة خلا عاصم[1] بضم الياء وتشديد الصاد وكسرها بمعنى يفصل الله بينكم أيها القوم، وقرأ عاصم بفتح الياء وكسر الصاد (يفصل) وهذه القراءات قريبات المعاني صحيحات الإعراب فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب[2].

ومما جعل أهل القرى يستكبرون على الله وعلى إتباع أنبيائهم على مرّ الأجيال غرورهم بالقوة والمال والأولاد؛ فأنزل الله الآيات توضح ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ * وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾[3].

إيذاء الكفار الأنبياء الأخيار ليس بدعاً بل عادة جرت من قبل (**وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ**) هي قصة معتادة وموقف متكرر على مدار الدهور، وهو الترف الذي يغلظ القلوب ويغيرها، ويفسد الفطرة ويغشيها فلا ترى دلائل الهداية فتتكبر على الهُدى وتصر على الباطل ولا تتفتح للنور والمترفون تخدعهم القيم الزائفة والنعيم الزائل ويخالون أنه آية الرضى عنهم أو أنهم في مكان أعلى من الحساب والجزاء[4].

---

(١) عاصم بن أبي النجود، إمام أهل الكوفة، أبوبكر الأسدي، مولاهم الكوفي، القارئ، واسم أبيه بهدلة على الصحيح، قرأ القرآن على أبي عبدالرحمن السلمي، وحدث عنه أبي وائل ومصعب بن سعد، وعطاء بن أبي رباح وأبوصالح السمان وأبوعمرو بن العلا، وقرأ عليه خلق كثير، توفي سنة١٢٧هـ، انظر طبقات القراء، الإمام شمس الدين أبي عبدالله محمد بن احمد بن عثمان الذهبي (٦٨٣هـ-٧٤٨هـ)، تحقيق د.أحمد خان، ط١(١٤١٨هـ-١٩٩٨م)، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ٧٥/١.

(٢) انظر: حجة القراءات، ص٧٠٦.

(٣) سورة سبأ، الآيات (٣٤-٣٧).

(٤) في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب٥/٢٢/٤٩١٠.

قال أهل الاستكبار . على الله . من كل قرية أرسلنا فيها نذيراً لأنبيائنا ورسلنا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن في الآخرة بمعذبين؛ لأن الله لو لم يكن راضياً لم يخولنا الأموال والأولاد ويبسط لنا في الرزق، قل لهم يا محمد إن ربي يبسط الرزق في الدنيا لمن يشاء من خلقه ويقدر فيضعف على من يشاء، يفعل ذلك محبة لعباده وابتلاء وأكثر الناس لا يعلمون أن الله يفعل ذلك اختباراً لعباده ولكنهم يظنون أن ذلك محبة لمن بسط له ومقت لمن قدر عليه(١).

قال تعالى ﴿ وَمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾(٢).

أي بالمزية التي تقربكم زلفى محلها النصب **(إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ)** أي الثواب المضاعف.

ومن نظائر هذه الآية قوله تعالى ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾(٣)، وقوله ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾(٤)، **(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ)** يقول الضحاك(٥): لا تغررك أموالهم ولا أولادهم. وقال قتادة: لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الآخرة(٦).

---

(١) جامع البيان ١٢/٢٢/٩٩-١٠٠.

(٢) سورة سبأ، الآية (٣٧).

(٣) سورة المؤمنون، الآيتان (٥٥-٥٦).

(٤) سورة التوبة، الآية (٥٥).

(٥) الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبوالقاسم الخرساني، المفسر، يروي تفسيره عن عبيد بن سليمان وهو خرساني، صدوق، كثير الإرسال، من الطبقة الخامسة، توفي بعد المائة، انظر: طبقات المفسرين، للداودي ١/٢١٦.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم المسمى التفسير بالمأثور، للإمام الحافظ شيخ الإسلام عبدالرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس التميمي الحنظلي الرازي، ط١(١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٥/٦٧.

وفي حديث مسلم والإمام أحمد[1] عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[2][3].

إذاً ليس ما تفتخرون به من مال وولد بمقياس للتقرب إلى الله تعالى، فما يقرب إليه إلا العمل الصالح وطاعته فمن التزم طاعته وأدى حقه أمن عذابه، وهذا ما تراه الباحثة بعد عرضها لهذه الأقوال.

من توجيه الآيات:

بيان سنة الله في الأمم والشعوب وأنهم ما آتاهم من رسول إلا كفر به الأغنياء والكبراء، وبيان اغترار المترفين بما آتاهم الله من مال وولد ظانين أن ذلك من رضا الله تعالى عليهم[4].

ما ذكرت من الآيات القرآنية توضح أوجه للغرور ودواعي الكِبْر بالنسبة للإنسان وما احتازه من متاع الدنيا فلا حق له بالاغترار به لأنه زائل وإلى فناء، ولم يحصل عليه باستحقاق منه، إنما تلك نظرة من أخذ هذا الدين لعباً ولهواً واغتر بالدنيا وزخارفها ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ

---

(١) أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبدالله بن حيان بن عبدالله بن أنس بن عون بن قاسط بن شيبان المروزي البغدادي، إمام في الحديث والفقه، صاحب المذهب الحنبلي، ولد في بغداد في ربيع الأول١٩٩هـ، ونشأ بها، وطلب العلم، وسمع الحديث من شيوخها، وتنقل في طلب العلم بين علماء الكوفة والبصرة ومصر ومكة والمدينة، توفي في بغداد لثلاثة عشر ليلة بقت من ربيع الأول في الحادي والأربعين والمائتين، من كتبه: المسند والناسخ والمنسوخ وكتاب الزهد وغيرها، معجم المؤلفين١/٢٦١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، ٤٥-كتاب البر والصلة والآداب، ١٠-باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، حديث رقم٢٥٦٤، ٣/١٩٨٦.

(٣) تفسير القاسمي٨/٢٩٢.

(٤) أيسر التفاسير٣/٥٥.

﴿[1] حيث سخروا به واستهزأوا به، واتخذوا الدين الواجب شيئاً من جنس اللعب واللهو كعبادة الأصنام وغيرها، فلا تبالي بأمثال هؤلاء وأمضى لما أمرت به[2].

وإذا رجعنا وتأملنا في حال أكثر الخلق وجدناهم موصوفين بهذه الصفة وداخلين تحت هذه الآية، خدعتهم الدنيا وأطمعتهم بالباطل حتى أنكروا البعث ومنهم من حصل على مال وغره ما عنده من عز فطغى وتكبر، أو من اغتر بحسبه وشرفه، وكل ذلك من متاع الحياة الدنيا الذي توجه الآيات القرآنية إلى عدم الاغترار به حتى لا يكون حائلاً بين صاحبه وقبول الحق أو العمل لليوم الآخر والاستعداد له.

(١) سورة الأنعام، الآية (٧٠).

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، شهاب الدين الآلوسي، دار الفكر، بيروت، لبنان،١٨٦/٧.

المطلب الثاني
استضعاف الآخرين

من أشكال الغرور والكبر استضعاف الآخرين، فهؤلاء المستضعفين اتبعوا المستكبرين في رفضهم للحق وإتباعه واغتروا بقولهم وعند امتثالهم أمام الله بدأ يرجع بعضهم إلى بعض القول وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وفي ذلك يقول تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۡ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[1].

(ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) يريد كفار قريش، يخبر تعالى عن تماديهم في طغيانهم وعنادهم واستكبارهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم، ولا بالذي أنزل

(١) سورة سبأ، الآيات (٣١-٣٣).

قبل القرآن من كتب الله تعالى كالتوراة والإنجيل، أو القيامة أو الجنة والنار. وإلى هذا المعنى ذهب المفسرون[١].

قال ابن جريج[٢]: قائل ذلك أبوجهل بن هشام[٣].

قال القرطبي: (قيل أن أهل الكتاب قالوا للمشركين صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتابنا فسلوه، فلما سألوه فوافق ما قال أهل الكتاب قال المشركون: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي أنزل قبله بل نكفر بالجميع، وكانوا قبل ذلك يراجعون أهل الكتاب ويتحجون بقولهم فظهر بهذا تنافقهم وقلة علمهم)[٤].

الآيات القرآنية توضح حال الكفار من المستكبرين والمستضعفين يوم القيامة إذ وقفوا عند ربهم واجتمع الرؤساء والأتباع في الكفر والضلال يتراجعون ويرجع بعضهم إلى بعض القول، ويقول الذين استضعفوا وهم الأتباع للذين استكبروا وهم القادة (لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) لكنكم حلتم بيننا وبين الإيمان، وزينتم لنا الكفر فتبعناكم على ذلك ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم[٥].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم٢/١٠٨٩، الجامع لأحكام القرآن٧/١٤/٣٠٣.

(٢) ابن جريج: عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج، الإمام، العلامة، الحافظ، شيخ الحرم، أبوولید، القرشي الأموي، صاحب التصانيف، وأول من دون العلم بمكة، حدث عن عطاء وابن أبي مليكة نافع مولى ابن عمر، والقراءة عن مجاهد، وحدث عنه خلق كثير، توفي سنة تسع وأربعين ومائة، سير أعلام النبلاء٦/٣٢٥.

(٣) أبوجهل ابن هشام (ت:٢هـ٦٢٤م)، هو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي، أحد سادات قريش وأبطالها ودهاتها في الجاهلية، أدرك الإسلام وكان يقال له أبا الحكم فدعاه المسلمون أبا جهل، الأعلام٥/٨٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي٧/١٤/٣٠٢.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف العلامة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي(١٣٠٧هـ-١٣٧٦هـ) تقديم محمد زهري النجار، طبع ونشر وتوزيع دار المنى، جدة،٤/١٩٣.

وفي (لَوْلَآ أَنتُمْ) لأهل اللغة بيان: من العرب من يقول لولاكم، حكاه سيبويه[1]) تكون لولا تمقض المضمر ويرتفع المظهر بعدها بالابتداء ويحذف خبره. والمبرد[2] يقول: لا يجوز لولاكم لأن المضمر عقيب المظهر فلما كان المظهر مرفوعاً بالإجماع وجب أن يكون المضمر مرفوعاً[3].

(قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ) قال الذين استكبروا نحن ما فعلنا بكم أكثر من إنّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاء بها الأنبياء واتبعتم شهوتكم واختياركم ولهذا قالوا بل كنتم قوماً مجرمين[4].

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ) المكر أصله في كلام العرب الاحتيال والخديعة وقد مكر به يمكر فهو ماكر ومكار.

قال الأخفش[5]: وهو على تقدير هذا مكر الليل والنهار.

---

(١) سيبويه: هو عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، أبوبشر، أديب، نحوي، أخذ النحو والأدب عن الخليل بن أحمد ويوسف بن حبيب وأبوالخطاب الأخفش وعيسى بن عمر، ورد بغداد وناظر بها الكسائي وتعصبوا عليه وجعلوا للعرب جعلاً حتى وافقوه على خلافه، من آثاره كتاب سيبويه في النحو ومجموعة الأفعال والتصاريف، توفي بفارس سنة١٧٧هـ، معجم المؤلفين٢/٥٨٤.

(٢) المبرد: محمد بن يزيد بن عبدالأكبر الشمال الأزدي، أبوالعباس، المعروف بالمبرد، إمام العربية ببغداد في زمانه، وأحد أئمة الأدب والأخبار، مولده بالبصرة ووفاته ببغداد، ولد عام٢١٠هـ، وتوفي عام٢٨٦هـ، من كتبه: الكامل، والمذكر والمؤنث، وإعراب القرآن الكريم، وطبقات النحاة البصريين، الأعلام٧/١٤٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم٢/١٠٨٩.

(٤) التفسير الواضح، محمد محمود حجازي، ط١٠(١٤١٢هـ-١٩٩٢م)، دار التفسير للطبع والنشر، ١٤١/٣.

(٥) الأخفش (٢٠١هـ-٢٩٢هـ) هو حارث بن موسى بن شريك التغلبي الثقفي، يعرف بالأخفش، أبوعبدالله، مقرئ، أديب، عارف بالتفسير والنحو والمعاني والغريب والشعر، من أهل دمشق، قرأ على ابن ذكوان، وحدث عن سلام المدايني، توفي بدمشق في صفر، له تصانيف في القراءات العربية، انظر: معجم المؤلفين٤/٥٠.

وقال النحاس[1]: بل مكركم في الليل والنهار أي مسارتكم إيانا ودعائكم لنا.

وإلى هذا المعنى ذهب زيد بن أسلم[2] وقتادة وسفيان الثوري[3] قائلاً: بل عملكم في الليل والنهار، فأضيف المكر إليهما لوقوعه فيهما وهو كقوله تعالى ﴿ **إِن أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ** ﴾[4] فأضاف الأجل إلى نفسه.

قال المبرد: أي بل مكركم الليل والنهار كما تقول العرب فنهاره صائم وليله قائم وأنشد جرير[5]:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ** ونمت وما ليل المطي بنائم

وهذا تشبيه للكفار وأهل الإغواء بأن تصير طاعة بعضهم لبعض في الدنيا سبب لعداوتهم في الآخرة فهؤلاء كانوا تبعاً في الدنيا[1].

---

(١) النحاس (ت:٣٣٨هـ-٩٥٠م) أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري، أبوجعفر النحاس، مفسر، أديب، مولده ووفاته بمصر، كان من نظراء نفطويه وابن الأنباري، زار العراق واجتمع بعلمائه، وصنف تفسير القرآن الكريم، وإعراب القرآن، وتفسير أبيات سيبويه، وناسخ القرآن ومنسوخه، ومعاني القرآن، وشرح المعلقات السبع، انظر: الأعلام١/٢٠٨.

(٢) زيد بن أسلم: هو الإمام الحجة والقدرة، أبوعبدالله العدوي، المدني، الفقيه، حدث عن والده أسلم مولى عمر، روى عن عبدالله بن عمر، وجابر بن عبدالله، وسلمة بن الأكوع، وأنس بن مالك، وعطاء بن يسار، وحدث عنه مالك بن أنس وسفيان الثوري والأوزاعي وسفيان بن عيينة، وكان له حلقة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، سير أعلام النبلاء٥/٣١٦.

(٣) سفيان الثوري: أبوعبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبدالله بن موهبة بن أبوعبدالله بن منقذ بن نصر بن الحكم بن الحارث بن ثعلبة بن ثور بن عدنان الثوري الكوفي، كان إماماً في الحديث وغيره من العلوم، وأجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته، وهو أحد الأئمة المجتهدين، ولد سنة٩٥هـ، وتوفي بالبصرة سنة١٦١هـ متوارياً من السلطان، انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (ت:٦٨١هـ)، حقق أصوله وكتب هوامشه د.يوسف علي طويل، ود.مريم قاسم طويل، ط١(١٤١٩هـ-١٩٨٤م)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢/٣٨٦.

(٤) سورة نوح، الآية (٤).

(٥) جرير بن عطية بن مخزوم الخطفي بن بدر الكلبي اليربوعي بن تميم، أشعر أهل عصره، ولد ومات في اليمامة، وعاش عمره كله يناضل شعراء زمانه ويساجهم، وكان هجاءاً لم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل، وكان عفيفاً، وهو من أغزل الناس شعراً، له ديوان شعر وأخبار مع الشعر، الأعلام٢/١١٩.

(وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ) فكل من الفريقين أدرك أن هذا الحوار البائس لا ينفع هؤلاء ولا هؤلاء ولا ينجي المستكبرين ولا المستضعفين فلكل جريمته وأثمه، فالمستكبرين عليهم وزرهم وعليهم تبعة إضلال الآخرين وإغوائهم والمستضعفون عليهم وزرهم، فهم مسئولون عن إتباعهم للطغاة فاستحقوا العذاب جميعاً وأصابتهم الحسرة وهم يرون العذاب حاضراً مهيباً[٢].

ندم كل منهم غاية الندم تمنى أن لو كان على الحق، وأنه ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب، سراً في أنفسهم لخوفهم من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم، وفي بعض مواقف القيامة وعند دخولهم النار يظهرون ذلك الندم جهراً، يقول تعالى ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً**﴾[٣] .

و﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ**﴾[٤].

وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ﴿**إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ**﴾[٥]، **(هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)** في هذا العذاب والنكال وتلك الأغلال الثقال إلا ما كانوا يعملون من الكفر والفسق والعصيان[٦].

وفي مشهد من أعجب مشاهد القيامة وأحفلها بالانفعال والحوار بين الضعفاء والمستكبرين الطغاة وأتباعهم الضعفاء المستذلين معهم الشيطان برزوا جميعاً مكشوفين، وهم مكشوفون لله دائماً ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنهم مكشوفون لا

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن٧/١٤/٣٠٣.

(٢) في ظلال القرآن الكريم٥/٢٢/٢٩.

(٣) سورة الفرقان، الآيتان (٢٧-٢٨).

(٤) سورة الملك، الآية (١٠).

(٥) سورة غافر، الآيتان (٧١-٧٢).

(٦) تيسير الكريم الرحمن، السعدي٤/١٩٣.

يحجبهم حجاب ولا يسترهم ساتر ولا يقيهم واقٍ، برزوا وامتلأت بهم الساحة ليبدأ الحوار قال تعالى ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾[1].

الضعفاء هم الذين جعلوا أنفسهم تبعاً للمستكبرين الطغاة ودانوا لغير الله من عبيده والضعف ليس عذراً بل هو جريمة، فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفاً وهو يدعو الناس جميعاً إلى حماه فيعتزون به والعزة لله. والطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبتها، والذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة[2].

(وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا) يقول سعيد حوى[3]: (أي برزت الخلائق كلها برها وفاجرها لله الواحد القهار، أي اجتمعوا له من براز الأرض وهو المكان الذي ليس فيه شيء ولا يستر أحداً ومعنى بروزهم لله والله تعالى لا يتوارى عنه شيء إنهم كانوا يتوارون عن العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خافٍ على الله، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا أن الله لا تخفى عليه خافية بروزا لحساب الله وحكمه ليقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تابعين فهل تقدرون على دفع شيء مما نحن فيه)[4].

---

(١) سورة إبراهيم، الآية (٢١).

(٢) في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب٤/١٣/٢٠٩٥.

(٣) سعيد حوى (١٣٥٤هـ-١٤٠٩هـ)، أبرز الدعاة الإسلاميين المنتمين إلى جماعة الإخوان المسلمين، اسمه سعيد بن محمد بن ديب حوى، ولد بحماة وعاصر في شبابه أفكار الاشتراكيين والإخوان وانضم إلى الإخوان في عام ١٣٧٢هـ، وقد مرت به أحداث كثيرة جرت له في سوريا وله ذكريات وملاحظات وتغييرات على ما جرى قصته منها هذه تجربتي وهذه شهادتي، وله عدة مؤلفات سلسلة الأصول الثلاثة: الله، الرسول، الإسلام، سلسلة الأساس في المنهج، الأساس في التفسير، انظر: تكملة معجم المؤلفين، عمر محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، ط١(١٤١٨هـ-١٩٨٧م)، ص٢١٠.

(٤) الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١(١٤٠٥هـ-١٩٨٥م)، ٥/٢٧٩٥.

(قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ) أي لو هدانا الله للإيمان لهديناكم إليه ولو هدانا إلى طريق الجنة لهديناكم إليها لو نجانا من العذاب لنجيناكم (سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ) ما لنا وجه نتباعد عن النار.

قال محمد بن كعب[1]: (ذكر لنا أن أهل النار يقول بعضهم لبعض يا هؤلاء قد نزل بكم من البلاء والعذاب ما قد ترون فهلم فلنصبر، فلعل الصبر ينفعنا كما نفع أهل الطاعة على طاعة الله فنفعهم الصبر إذ صبروا، فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا، فطال صبرهم فجزعوا فنادوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص أي منجي)[2].

قال ابن كثير: الظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها مالنا من منجي ومهرب جزعنا أو صبرنا[3].

وهذا ما أورده الشوكاني[4] أيضاً في تفسيره[5].

إذاً الضعفاء في النار مع الذين استكبروا لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولاً إمعات ولم يخفف عنهم أنهم كانوا لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار منحهم الله الكرامة، كرامة الإنسانية وكرامة التبعة الفردية، وكرامة الاختيار، لكنهم تنازلوا عن كل ذلك لينساقوا

---

(١) محمد بن كعب بن مالك الأنصاري، ذكره البغوي والباوردي وابن السكيت وابن شاهين وابن مسنده وغيرهم من الصحابة، أخرجوا له عن طريق عكرمة بن عمار من طارق بن عبدالرحمن سمعت عبدالله بن كعب وأخوه محمد بن كعب فعودوا عن هذه السارية لسارية أشار إليها في سراري المسجد، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر٦/٣٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي٩/٣٥٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم٢/١٣/٥٤٧.

(٤) الشوكاني: محمد بن علي بن محمد بن عبدالله بن الحسن بن محمد بن صلاح بن علي بن عبدالله الشوكاني الخولاني، ثم الصنعاني، أبوعبدالله، مفسر، محدث، فقيه، أصولي، مؤرخ، أديب، نحوي، منطقي، متكلم، ولد بهجرة شوكان من بلاد خولان في ٢٨ذي القعدة، ونشأ بصنعاء وولي القضاء، وتوفي في صنعاء في جمادى الآخر، له تصانيف كثيرة، معجم المؤلفين٣/٥٤١.

(٥) فتح القدير، الشوكاني، وثق أصوله وعلق عليه سعيد محمد اللحام، ط٢(١٤١٣هـ-١٩٩٢م)، المكتبة التجارية، مصطفى أحمد الباز، مكة المكرمة، ١٤٧/٣.

وراء الكبـــراء والطغـــاة ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾[1].

قال ابن عطية[2]: (الضمير في قوله (يَتَحَآجُّونَ) لجميع كفار الأمم وهذا ابتداء قصص لا يختص بآل فرعون، والعامل إذ فعل مضمر تقديره واذكروا والمحاجة التحاور بالحجة والخصوم (إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ) أي ذوي تبع فهل أنتم حاملون عنا، فأجابوهم إنا كل فيها وإن حكم الله قد نفذ فينا وفيكم مستمرون في النار)[3].

قرأ الجمهور (كُلُ) بالرفع على الابتداء وخبره فيها والجملة خبر إن قاله الأخفش. وقرأ ابن السميفع[4] وعيسى بن عمر[5] (كلاً) بالنصب.

---

(١) سورة غافر، الآيتان (٤٧-٤٨).

(٢) ابن عطية: هو غالب بن عطية، الفقيه، الحافظ، أبوبكر الحاربي، وأبوه عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن عبدالرؤوف بن تمام بن عبدالله بن عطية بن خالد بن خفاف بن أسلم بن مكرم الحاربي، تفقه على فقهاء بلده، وسمع منهم، وقرأ القراءات السبع على أبي الحسين بن عبدالله، وغلب عليه الأدب، وأجاد الكلام، ونظم الشعر ثم عطف على الفقه والحديث، توفي سنة٥١٨هـ، طبقات المفسرين، للداودي٢٣/٢.

(٣) تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بابن حيان الأندلسي القرناطي (٦٥٤هـ-٧٥٤هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، ط٢(١٤٠٣هـ-١٩٨٣م)، ٤٦٨/٧.

(٤) ابن السميفع: هو الشيخ أبوعبدالله محمد بن عبدالرحمن بن السميفع اليماني، له قراءة معروفة، قيل إنه قرأ على نافع بن أبي النعيم وغيره، قرأ عليه شيخ اسمه أبوإبراهيم إسماعيل بن مسلم، أحد المجاهيل، فقرأ على إسماعيل هذا بمكة إبراهيم بن عبدالمدني، وقرأ أيضاً على ابن السميفع، توفي سنة ٢١٥هـ، طبقات القراء، للذهبي، ١٩٩/١.

(٥) عيسى بن عمر الهمداني الكوفي، القارئ، مولى بني أسد، يكنى أبا عمر، قرأ على عاصم بن أبي النجود وطلحة بن مصرف وسليمان الأعمش، وقرأ عليه الكسائي وعبدالرحمن بن حماد، حدث عن عطاء بن أبي رباح وحماد بن سليمان وغيرهم، روى عنه خلق كثير، مات سنة١٥٦هـ، طبقات القراء ١٢٦/١.

قال الكسائي والفراء: على التأكيد لاسم إن بمعنى لكنا وتنويه عوض عن المضاف إليه وقيل على الحال رجحه ابن مالك[1] **(إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ)** قضى بينهم فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير[2].

الآيات توضح أنه لا منجي من عذاب الله إلا طاعة الله سبحانه وتعالى فهي سبب استحقاق الثواب ولا ينفع المستضعفين تبعية المستكبرين فإذا كانوا في الأرض أصحاب بطش وقوة فهم يوم القيامة لا يملكون نفعاً.

وعليه ترى الباحثة أن على الإنسان أن يوطن نفسه ولا يكون إمعة تبعاً لذوي السلطان لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا)[3].

---

(١) ابن مالك: الإمام الكبير، شيخ العربية، وصاحب التسهيل جمال الدين محمد بن أبي عبدالله بن مالك الطائي الأندلسي البياني، نزيل دمشق، ولد سنة ستمائة، سمع بدمشق من ابن مهاج مكرم القرشي، وعلم الدين السخاوي، وتصدر للإفادة بحلب، وأمّ بالسلطانية، وانتهى إليه علم النحو واللغة، نظم القراءات في قصيدة دالية، كان مهيباً، توفي في شعبان سنة اثنتين وسبعين وستمائة، طبقات القراء ١٨٣/٣.

(٢) فتح القدير، الشوكاني٧٠٦/٤.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، تحقيق د.مصطفى محمد حسين الذهبي، ط١(١٤١٩هـ-١٩٩٩م)، دار الحديث، القاهرة، طبع ونشر وتوزيع، ٢٥-كتاب البر والصلة والآداب، ٦٣-باب ما جاء في الإحسان والعفو، حديث رقم٢٠٠٧، ٣٦٤/٤.

المطلب الثالث
الغرور بالنفس

هنالك وجه للغرور والكبر وهو الغرور بالنفس، فما يحمل الشخص على الكبر والغلو هو الطغيان، ليس بمؤثر عليه إنما لعظمة يراها في نفسه ولغرور ملأ جوانحه فاستفاض بها ليتحكم عليه، فليس لمال ولا جاه ولا سلطان، إنما لعلو يراه لنفسه ودوافع تغر بها.

يخبر الله تعالى ذكره عن تعنت الكفار في كفرهم وعنادهم بقوله ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴾[1].

قال ابن كثير: (أي تنزل عليهم بالرسالة كما تنزل على الأنبياء كما أخبر عنهم في آية أخرى ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾[2] وقد يكون نداؤهم: لولا أنزل علينا الملائكة عياناً فيخبرونا أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم كقولهم ﴿ أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلٗا ﴾[3] أو نرى ربنا ولهذا قال تعالى (لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا) وقد قال تعالى ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا ﴾[4][5]).

هذا قول الذين كذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأنكروا وعد الله ووعيده الذين ليس في قلوبهم خوف الوعيد ولا رجاء لقاء الخالق، (لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا

---

(١) سورة الفرقان، الآية (٢١).

(٢) سورة الأنعام، الآية (٢٢).

(٣) سورة الإسراء، الآية (٩٢).

(٤) سورة الأنعام، الآية (١١١).

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٩٩٠.

(ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا) أي تشهد لك بالرسالة وتؤيدك عليها أو تنزل رسلاً مستقلين، ونرى ربنا فيكلمنا هذا رسول فاتبعوه، هذا تكبر وعلو وعتو من الذين استكبروا في أنفسهم حيث اقترحوا هذا الاقتراح وتجرءوا هذه الجرأة، فمن أنتم حتى تطلبوا رؤية الله وتزعموا أن الرسالة متوقف ثبوتها على ذلك؟! وأي كبر أعظم من هذا؟ فهذه أشد قساوة على الحق وهذه القلوب هي أشد من الحجارة وأصلب من الحديد لا تلين للحق ولا تصغي للناصحين، فأي عتو أكبر من هذا العتو؟ ولذلك بطلت أعمالهم وأضحلت وخسروا أشد الخسران وحرموا غاية الحرمان(١).

وما إعراض المشركين عن دعوته صلى الله عليه وسلم إلا لكبر في نفوسهم قال تعالى ﴿ **وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا** ﴾(٢) أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما دعوهم إليه **(وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ)** ذكر السبب الذي هو حظهم خالصاً ليكون أقبح في إعراضهم عنه فجعلوا أصابعهم في آذانهم، الظاهر أنه حقيقة سدوا مسامعهم من سماع النصح ورؤية الناصح، ويجوز أن يكون كناية عن المبالغة في إعراضهم عن ما دعاهم إليه فهم بمنزلة من سدّ سمعه ومنع بصره(٣).

إني دعوتهم لأجل أن يستجيبوا فإذا استجابوا غفرت لهم، فكان هذا محض مصلحتهم، ولكنهم أبوا إلا تمادياً على باطلهم ونفوراً عن الحق، فجعلوا أصابعهم في آذانهم حذر سماع ما يقول لهم نبيهم نوح عليه السلام(٤).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن١٩/٥٨١.

(٢) سورة نوح، الآية (٧).

(٣) البحر المحيط، لأبي حيان٨/٣٣٨.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي٢٩/٨٨٩.

(وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ) قال ابن عمر[1]: تنكروا له لئلا يعرفهم، وقال سعيد بن جبير: غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول، وأصروا أي استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم واستنكفوا عن إتباع الحق والانقياد له[2].

ويتضح للباحثة أن هذا النوع من الغرور . الغرور بالنفس . نتيجة عظمة وجدها الشخص في نفسه دون الآخرين دافعة في ذلك الطغيان ليس غيره، فليس هناك دافع لرفض قريش دعوة النبي صلى الله عليه وسلم أو سبب واضح سوي ذلك الطغيان الذي عمى صدورهم من عظمة وكبر في نفوسهم حتى كان شيئاً لرفضهم للحق وإتباعه.

---

(١) عبدالله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أمه زينب بنت مظعون الجمحية، ولد سنة ثلاث من البعثة، هاجر وهو ابن سنتين، توفي سنة٨٤هـ، أسلم مع أبيه وهاجر، استصغره رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وأجازه يوم الخندق، وهو من المكثرين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، الإصابة١٨١/٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم١٣٦٩/٢.

المبحث الثاني
سمات الغُرور والكِبرْ

وبه مطلبان:

المطلب الأول: الخيلاء والفخر.

المطلب الثاني: المجادلة في آيات الله.

المطلب الأول
الخيلاء والفخر

تعريف الخيلاء والفخر:

المختال لغةً: من خيل، قال ابن فارس[١]: (الخاء والباء واللام أصل واحد يدل على حركة في سكون وسمي المختال كذلك لأنه في مشيته يتلون في حركته ألواناً)[٢].

يقال اختال الرجل وبه خيلاء وهو الكِبر والإعجاب[٣].

والخال والخيلاء والأخيل والخيلة والمخيلة كله الكِبْر، فالمختال: المتكبر.

قال أبوإسحق: المختال الصَّلف[٤] المتباهي المجهول الذي يأنف من ذوي قرابته إذا كانوا فقراء، من جيرانه إذا كانوا كذلك ولا يحسن عشرتهم[٥].

المختال اصطلاحاً: قال الراغب[١]: (الخيلاء المتكبر من تخيل، فضيلة تراءت للإنسان في نفسه)[٢].

---

(١) ابن فارس: هو أحمد بن زكريا الغزويني الرازي، أبوالحسن، من أئمة اللغة والأدب، قرأ عليه الهمزاني والصاحب بن عباد وغيره، من أعيان البيان، أصله من قزوين وأقام مدة في همذان ثم انتقل إلى الري فتوفي بها وإليها نسبته، من تصانيفه: مقاييس اللغة، المجمل والصاحبي في علم العربية، وله شعر حسن، الأعلام١/١٩٢.

(٢) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، حققه وضبطه عبدالسلام محمد هارون، ط١(١٤١١هـ-١٩٩١م)، دار الجيل، بيروت، ٢/٢٣٥.

(٣) المصباح المنير١/٢٥٤.

(٤) الصَّلف: مجاوزة قدر الظرف والإدعاء، فوق ذلك تكبراً، مختار الصحاح، الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، عنى بترتيبه محمود خاطر، مراجعة لجنة تحقيق التراث بدار الكتب المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص١٥٤.

(٥) انظر: لسان العرب١١/٢٢٨، تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (٢٨٢هـ-٣٧٠هـ)، تحقيق د.عبدالحليم النجار، مراجعة الأستاذ محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة ومطابع سجل العرب، ٧/٥٦٠.

الفخر لغةً: قال ابن فارس: (الفاء والخاء والراء أصل صحيح، وهو يدل على عظم وقدم، والتفاخر التعاظم، والتفخر: التعظيم والتكبر، فخرت الرجل على صاحبه أفخر فخراً أي فضلته عليه)[٣].

ورجل فخير: كثير الافتخار، يقال: فخر الرجل يفخر إذا عدد حسبه ومفاخره[٤].

والاسم الفخار، وهو المباهاة بالمكارم والمناقب من حسب ونسب وغير ذلك إما في المتكلم أو في آياته[٥].

وتفاخر القوم فيما بينهم إذا افتخر كل منهم بمفاخره[٦].

والفخر اصطلاحاً: المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه[٧].

قال الجرجاني[٨]: (وهو التطاول على الناس بتعديد المناقب)[٩].

التكبر والخيلاء والفخر صفات غير محبوبة في النفس البشرية تقضي في نفس صاحبها شعوراً بالعظمة والعلو على الآخرين، وتشعره بأنه الأفضل منهم والأحسن حسب مقاييس وضعها لنفسه دون اعتبار لمقاييس المجتمع والدين.

---

(١) الراغب (ت:٥٠٢هـ) هو الحسين بن محمد بن الفضل المعروف بالراغب الأصبهاني، أبوالقاسم، أديب، لغوي، حكيم، مفسر، من تصانيفه الكثيرة: تحقيق البيان في تأويل آي القرآن، الذريعة إلى أحكام الشريعة، محاضرات الأدباء، محاورات الشعراء البلغاء، مفردات ألفاظ القرآن والقلائد والفوائد، معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة١/٦٤٢.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب، ص٣٠٦.

(٣) معجم مقاييس اللغة٤/٤٨٠.

(٤) تهذيب اللغة٧/٤٥٨، معجم مقاييس اللغة٤/٤٨٠.

(٥) المصباح المنير٢/٦٣٤، تهذيب اللغة٧/٧٣٥٩.

(٦) لسان العرب٤/٤٩.

(٧) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب، ص٦٢٧.

(٨) الجرجاني: علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني (٧٤٠هـ-٨١٦هـ)، فيلسوف، من كبار العلماء بالعربية، ولد في تاكو قرب استراباد، ودرس في شيراز وأقام بها إلى أن توفي، له نحو خمسين مصنفاً منها: التعريفات، ومقاليد العلوم، وتحقيق الكليات وغيرها، انظر: الأعلام٥/٧.

(٩) التعريفات، للجرجاني، حققه محمد باسم عيون السود، ط١(١٤٢١هـ-٢٠٠٠م)، دار الكتب العلمية، بيروت، ص١٦٥.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قيل للنبي صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس؟ قال: أكرمهم أتقاهم)[١]، وفي سنن ابن ماجة[٢] أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى أعمالكم وقلوبكم)[٣]، والمتفحص لهذه المعاني يجد هنالك رابطاً يربط فيما بينها جميعاً وهو اعتزاز بالنفس بما ليس فيها، وهنا يكمن الخلل، فبهذا الشعور الداخلي في النفس يترفع الإنسان عن الخلق ويتجاوز الحق الذي رسم له وحددته الشريعة[٤].

ولقد عرض القرآن الكريم النهي عن هذه الظاهرة من ظواهر الكِبْر في السلوك ضمن وصايا لقمان لابنه وقد ذكرها الله مؤيداً لها ومشيداً بحكمة لقمان يقول تعالى ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴾[٥].

في معرض وصية لقمان لابنه أمره أن يكون كاملاً في نفسه مكملاً لغيره (يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ) كان يخشى بعدها أمرين: أحدهما: التكبر على الغير بسبب كونه كاملاً في نفسه فقال (وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ) تكبراً والثاني: (وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا) تبختراً.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت،٥٢/٦.

(٢) ابن ماجة: هو أبوعبدالله محمد بن يزيد القزويني بن ماجة، ولد سنة٢٠٩هـ، من المحدثين الثقات، توفي سنة٢٧٣هـ، من آثاره: سنن ابن ماجة، انظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبي المحاسن بن يوسف بن تغربردي الأتباكي، ط١(١٣٥١هـ-١٩٣٢م)، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ٧٠/٣.

(٣) أخرجه ابن ماجة في سننه، ٣٧-كتاب الزهد، ٩-باب القناعة، حديث رقم٤١٤٣، ١٣٨٨/٢.

(٤) الحب والبغض في القرآن الكريم، إعداد مها يوسف جار الله، تقديم السيد محمد السيد نوح، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ، ص٢٣١.

(٥) سورة لقمان، الآيات (١٧-١٨).

الصعّر داء يصيب الإبل في أعناقها أو رؤوسها حتى تلفت أعناقها عن رؤوسها فشبه به الرجل المتكبر على الناس، أورد هذا الطبري وسيد قطب في الظلال[١].

اختلف القراء في قراءة قوله **(وَلَا تُصَعِّرْ)** قرأ بعض قراء الكوفة والمدنيين **(وَلَا تُصَعِّرْ)** على مثال تفعل، وقرأ ذلك بعض المكيين، وعامة قراء المدينة والكوفة والبصرة (ولا تصاعر) على مثال تفاعل، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب[٢].

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ) لا تتكبر فتحقر عباد الله وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك، فهو من الصدِّ والإعراض بالوجه عن الناس وإلى هذا المعنى ذهب المفسرون[٣].

أي أقبل على الناس بوجهك تواضعاً لهم ولا تعرض عنهم تكبراً عليهم واحتقاراً لهم[٤].

سعيد بن جبير قال: (لا تعرض عن فقراء الناس تكبراً)[٥].

وقيل: أن تلوي شدقك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره[٦].

يرجح الطبري قول من قال: لا تعرض بوجهك عمن كلمته تكبراً واستحقاراً لمن تكلمه[٧].

يقول عمرو بن حنى التغلبي[٨]:

---

(١) انظر: جامع البيان ٧٤/٢١/١١، في ظلال القرآن ٢٧٩٠/٢١/٥.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣٤٠/٤، الكشف عن وجوه القراءات السبع، أبي محمد مكي بن أبي طالب الفينقي (٣٥٥هـ-٤٣٧هـ)، تحقيق د.محي الدين رمضان، ط٤(١٤٠٧هـ-١٩٨٧م)، مؤسسة الرسالة، ص٤١٥.

(٣) انظر: جامع البيان ٧٤/٢١/١١، الجامع لأحكام القرآن ٦٩/١٤/٧، الأساس في التفسير ٤٣٢٢/٨.

(٤) مفاتيح فهم القرآن، أحمد علي الإمام، ط١(١٤٢١هـ-٢٠٠٠م)، مطبعة الصباح، دمشق، سوريا، ودار المنى للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ص٤٦١.

(٥) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٢٤/٢١/٦.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٧٠/١٤/٧.

(٧) جامع البيان ٧٥/٢١/١١.

(٨) عمرو بن حنى التغلبي وهو فارس جاهلي مذكور يقول في قتلهم عمرو بن هند على رواية محمد بن داؤود:

نعاطي الملوك الحق ما قصدوا بنا ** وليس علينا قتلهم بمحرم

وكنـــا إذا الجبـــار صـــعّر خـــده ** أقمنـــا لـــه مـــن ميلـــه فتقومـــا[1]

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ) أي أقبل عليهم متواضعاً مؤنساً مستأنساً وإذا حدثك أصغرهم فأصغ إليه حتى يكمل حديثه وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل، قال عليه الصلاة والسلام: (لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً)[2].

وقيل للإعراض تدابر، أعرض دبر، لأن من أبغضته عرضت عنه ووليته دبرك ومن أحببته أقبلت عليه بوجهك وواجهته تسره ويسرك، كأنه ينهي أن يذل الإنسان نفسه من غير حاجة.

(وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا) أي متبختراً متكبراً، وهو النشاط والمشي فرحاً في غير شغل وفي غير حاجة. وأهل هذا الخُلق ملازمون الفخر والخيلاء فالمرح مختال في مشيته، قال أبوعبيد: (ذا مال كثير وذا خيلاء)، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من جرّ ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة)[3]، والفخور يعدد ما أعطى ولا يشكر الله تعالى[4].

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) تعليل للنهي، لأن الاختيال هو المرح والفخور هو الذي يفتخر على الناس بما له من المال أو الشرف أو القوة أو غير

أنفق لهم من عقل عمرو بن مرثد ** إذا وردوا ماء ورمح بن مرثد

وكنا إذا الجبار صعّر خده ** أقمنا له من ميله فتقوما

انظر: معجم الشعراء، أبوعبيد بن محمد بن عمران بن موسى المروزباني، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، ط١(١٣٨٧هـ-١٩٦٠م)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ص٢٠٦.

(١) نسب البيت في اللسان (صعر) للمتلمس بن جرير بن عبدالمسيح قال: الصعر ميل في الوجه، وقيل الصعر ميل في الخد خاصة، وربما كان خلقة في الإنسان، وقيل هو ميل في العنق وانقلاب في الوجه إلى أحد الشقين، وقد صعر خده وصاعره أماله من الكبر، يقول إذا أمال متكبر خده أذللناه حتى يتقوم ميله، لسان العرب٤/٤٥٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، ٤٥-كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم٢٥٦٤، ٣/١٩٨٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، حديث رقم٤٤، ٢/١٦٣٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي٧/١٤/٧٠.

ذلك، وليس منه التحدث بنعم الله فإن الله تعالى يقول ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾[1][2].

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) قيل بالنبوة التي أعطاك ربك، وقيل بالقرآن، وقيل الرجل المؤمن يعمل عملاً صالحاً فيخبر به أهل بيته. قال قتادة: من شكر النعمة إفشاؤها، وفضيل بن عياض[3]: من شكر النعمة أن يحدث بها[4].

والصحيح أنه عموم في جميع النعم، كان بعض السلف يقول أعطاني الله كذا ولقد صليت البارحة كذا، وهذا إنما يجوز إذا كان على وجه الشكر أو ليقتدى به، فأما على وجه الفخر والرياء فلا يجوز[5].

قياساً على تصعير الخد نستطيع أن نقول: أن كل إعراض عن الناس على سبيل الكِبْر يدخل في ضمن هذه الظاهرة سواء أكان ذلك في الخد أو الوجه كله أو في الجسم كله لأن المعنى في كل ذلك واحد.

أما المشي في الأرض على وجه المرح والاختيال استكباراً على الناس أو افتخاراً وتعالياً عليهم، فهو عمل يبغضه الله ورسوله، إلا إذا كان من وراءه تحقيق غرض مشروع كالتبختر في مواطن قتال أعداء الله لإلقاء الوهن والذعر في قلوبهم مع ابتغاء مرضاة الله في ذلك.

---

(١) سورة الضحى، الآية (١١).

(٢) فتح القدير ٤/٣٤١.

(٣) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي أبوعلي، شيخ الحرم المكي، كان ثقة في الحديث، أخذ عنه الإمام الشافعي، ولد في سمرقند سنة١٠٥هـ، ونشأ بأبيوره، دخل الكوفة وهو كبير، سكن مكة وتوفي بها سنة١٨٧هـ، الأعلام٥/١٥٣.

(٤) الدر المنثور في التفسير بالمأثور٦/٦١٢.

(٥) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، الشيخ الإمام العلامة أبوالقاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي (ت:٧٤١هـ)، ضبطه وصححه وخرج آياته محمد سالم هاشم، ط١(١٤١٥هـ-١٩٩٥م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢/٥٨٣.

ومن المعروف أن الامتياز بالخصائص ينبه عرق الصلف ويغذي جرثومته، وقد نهى الله عن مشية المرح بقوله تعالى ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾[1].

المراد من الآية النهي عن أن يمشي مشياً يدل على الكبرياء والعظمة.

قال الزجاج: (لا تمش في الأرض مختالاً فخوراً)[2].

إنه سبحانه وتعالى أكد النهي عن الخيلاء والتكبر فقال: (إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا)، المراد من الخرق هاهنا نقب الأرض تخرق الأرض تقطعها وتثقبها، والخرق الأرض البعيدة والفلاة الواسعة[3].

وذكر الرازي في ذلك وجوهاً:

الأول: أن المشي إنما يتم بالارتفاع والانخفاض فكأنه قيل: إنك حال الانخفاض لا تقدر على خرق الأرض ونقبها وحال الارتفاع لا تقدر على أن تصل إلى رؤوس الجبال، والمراد التنبيه على كونه ضعيفاً عاجزاً فلا يليق به التكبر.

الثاني: المراد منه أن تحتك الأرض التي لا تقدر على خرقها وفوقك الجبال التي لا تقدر على الوصول إليها، فأنت محاط بك من فوقك ومن تحتك بنوعين من الجماد وأنت أضعف منهما بكثير والضعيف المحصور لا يليق به التكبر لكأنه قيل له: تواضع ولا تتكبر فإنك خلق ضعيف من خلق الله المحصور بين حجارة وثواب فلا تفعل فعل المقتدر القوي[4].

والإنسان حين يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عباده تأخذه الخيلاء بما يبلغه من الثراء أو السلطان أو القوة أو الجمال، ولو تذكر أن ما به من نعمة

---

(١) سورة الإسراء، الآية (٣٧).

(٢) معاني القرآن، للزجاج٣/٩٢.

(٣) مفاتيح فهم القرآن، أحمد علي الإمام، ص٤٦١.

(٤) تفسير الرازي٥/١٠/٢١٢-٢١٣.

فمن الله وأنه ضعيف لا حول له ولا قوة لطامن[1] من كبريائه وخفف من خيلائه ومشى على الأرض هوناً لا تيهاً ولا مرحاً، والقرآن الكريم يصف المتطاول المختال المرح بضعفه وعجزه وضآلته ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولاً ﴾ فالإنسان بجسمه ضئيل هذيل لا يبلغ شيئاً من الأجسام الضخمة التي خلقها الله، إنما هو قوي بقوة الله عزيز بعزة الله، كريم بروحه الذي نفخه الله فيه ليتصل به ويراقبه ولا ينساه. فذلك التواضع الذي يدعو إليه القرآن بترذيل المرح والخيلاء، أدب مع الله تعالى وأدب مع الناس . أدب نفسي واجتماعي . وما يترك هذا الأدب إلى الخيلاء والعجب إلا فارغ صغير القلب، صغير الاهتمامات يكرهه الله لبطره ونسيان نعمته ويكرهه لانتعاشه وتعاليه[2].

وأحسن من قال:

لا تمش في الأرض إلا تواضعاً ** فكم تحتها قوم هم منك أرفع

وإن كنت في عز وحرز ومنعة ** فكم مات من قوم هم منك أمنع

فلا قوة لك حتى تخرق الأرض بالمشي عليها ولا عظم في بدنك حتى تطاول الجبال[3].

ويظهر مما تقدم إنه لو عقل المستكبرون الذين يختالون ويمشون في الأرض مرحاً لعرفوا أن هذا العمل يصغرهم ويقلل من شأنهم عند الله تعالى وعند الناس، فالله لا يحب الذين يستكبرون على عباده والذين يريدون علواً في الأرض والناس أيضاً يكرهون من يستكبر عليهم ويكرهون كل ظاهرة تدل على الكِبْر في الأنفس إذا رأوها من غيرهم.

---

(١) طامن: مطاوع طأمنه إذا سكن أو انخفض، وتخفف بالهمزة فيقال طامن، المعجم الوسيط، ص٥٦٦.

(٢) في ظلال القرآن٤/١٥/٢٢٢٨.

(٣) فتح القدير، الشوكاني٣/٣٢٦.

أما المتواضع، الهين، اللين، موطأ الأكناف فإن الناس يحبونه ويألفونه، وأن الله يحبه ويكرمه ويرفع قدره ولذلك جاء في وصف عباد الرحمن أنهم يمشون على الأرض هوناً، أي مشياً رفيقاً متسماً بالسكينة والوقار غير مختالين ولا مستكبرين[1].

قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾[2].

إن من يشعر بأن كل ما يصيبه هو من أمر الله سبحانه وتعالى لا يختال ولا يفخر بما يعطاه، فأما الذي لا يشعر بتلك الحقيقة ويحسب أن ما يؤتاه من مال وقوة وجاه وسلطان هو كسبه يفخر ويختال به ﴿ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴾[3] أي لا تحزنوا وتفسير الأسى بالحزن قريب وفيه مع هذا القرب أن الأسى يكون على ما فات والحزن قد يكون على حاضر أو آت[4].

أي حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من الرزق، ذلك أنهم إذا علموا أن الرزق قد فرغ منه لم يأسوا على ما فاتهم منه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ثم قرأ لكيلا تأسوا على ما فاتكم)[5].

أي لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا، فإنه لم يقدر لكم ولو قدر لكم ولم يغنكم لا تفرحوا بما آتاكم، أي من الدنيا، قاله ابن عباس.

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني، ٧٣٧/١.

(٢) سورة الفرقان، الآية (٦٣).

(٣) سورة الحديد، الآية (٢٣).

(٤) مفاتيح فهم القرآن، ص٥١٢.

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، الإمام أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت:٤٥٨هـ)، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، ط٣(١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م)،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٣٢/١٠.

وقال سعيد بن جبير: من العافية والخصب وروى عكرمة عن ابن عباس: ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً وغنيمته شكراً والحزن والفرح المنهي عنهما هما اللذان يعدي فيهما إلى ما لا يجوز.

قال جعفر الصادق[1]: يا ابن آدم مالك لا تأسى على مفقود لا يرده عليك الفوت أو تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت.

(وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ) قيل المختال الذي ينظر إلى نفسه بعين الافتخار، والفخور الذي ينظر الناس بعين الاحتقار، وكلاهما شرك خفي، والفخور بمنزلة المصراة[2] تشد أخلافها ليجتمع فيها اللبن، فيتوهم المشتري أن ذلك معتاد وليس كذلك، فكذلك يرى نفسه حالاً وزينة وموضع ذلك مدّع فهو فخور[3].

والله لا يحب من اتصف بهاتين الصفتين وهما الاختيال والافتخار وقيل: هو ذم لمن يختال في نفسه[4].

من توجيه الآية:

إن الإيمان بالقضاء والقدر هو علاج الاختيال والفخر اللذين ينشأ عنهما البخل والتبخيل وترك الإنفاق في سبيل الله[5].

يقول تعالى مخبراً عن جميع قضائه وقدره ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ** ﴾[6].

---

(١) جعفر الصادق بن علي بن عبدالله بن شيخ بن عبدالله العيدروس العلوي، عالم صوفي، شاعر، ولد بمدينة نديم واستقر بمدينة سورت بالهند إلى أن توفي بها وله جزء في التاريخ ودوائر الفروض تحفة الأوفياء بترجمة سفينة الأولياء، انظر: معجم المؤلفين ٤٩٢/١.

(٢) المصراة: مصر الناقة أو الشاة، وتمصرها وامتصرها حلبها بأطراف الأصابع الثلاث، وهي ماصر ومصور بطيئة خروج اللبن والتمصر حلب بقايا اللبن في الضرع حتى يقال حلوب، القاموس المحيط، ص٦١٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٥٨/١٧/٩.

(٤) فتح القدير، الشوكاني ٢٤٩/٥.

(٥) الأساس في التفسير ٥٧٥٣/١٠.

(٦) سورة الحديد، الآية (٢٢).

(لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ) وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ صغيرها وكبيرها وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنده أفئدة أولي الألباب ولكنه على الله يسير، وأخبر الله به عباده لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر فلا ييأسوا ولا يحزنوا على ما فاتهم مما طمحت له أنفسهم وتشوقوا إليه، لعلمهم أن يكون ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ ولابد من نفوذه ووقوعه ولا سبيل إلى دفعه.

(وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) أي متكبر فظ غليظ معجب بنفسه فخور بنعم الله ينسبها إلى نفسه وتطغيه وتلهيه كما قال تعالى ﴿ **ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ**﴾(١)(٢).

وترى الباحثة أن الاختيال والافتخار صفتان مذمومتان يجب على المؤمن أن يحذرهما حتى يفوز برضا الله والجنة.

---

(١) سورة الزمر، الآية (٤٩).

(٢) تيسير الكريم، ص٨٤٢.

المطلب الثاني
المجادلة في آيات الله

يتخذ المستكبرون عن إتباع الحق وسائل كثيرة يبررون فيها رفضهم إتباع الحق، ووسائل عديدة يضلون بها الناس بغية تقوية جبهتهم، وتكثير أنصارهم وأتباعهم أو السائرين على مثل طريقهم، ومن هذه الوسائل: الجدال بالباطل وتنميق زخرف القول، وقد أبان القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾[1].

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ) يدفعون الحق بالباطل ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله[2].

عام في كل مجادل وإن نزل في مشركي مكة، قاله أبوالسعود.

(فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ) أي القرآن بغير حجة ظاهرة واضحة، جاءتهم من جهة الله سبحانه وتعالى تقييداً للمجادلة بذلك مع استحالة إتيانه للإيذان فإن المتكلم في أمر الدين لابد من استناده إلى سلطان مبين[3].

وعن كعب الأحبار[4] قال: (هم اليهود نزلت فيهم فيما ينتظرونه من أمر الدجال)[5].

---

(١) سورة غافر، الآية (٥٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم٢/١١٦٥.

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، أبوالطيب صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري، راجعه عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، ط١(١٤١٠هـ-١٩٨٩م)، إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر،٢٠٦/١٢.

(٤) كعب الأحبار (ت:٣٢هـ-٦٥٢م) كعب بن ماتع بن ذي خصب الحميري، أبوإسحق، تابعي، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود، وأسلم في زمن أبوبكر الصديق، وقدم المدينة في دولة عمر فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثير من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة، سكن حمص، توفي بها عن مائة وأربع وستين سنة، الأعلام٥/٢٢٨.

(٥) الدر المنثور في التفسير بالمأثور٧/٢٤/٢٩٤.

(إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ) أي ما في قلوبهم إلا تكبر عن إتباع الحق واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إضحال الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع وقولهم وقصدهم موضوع[١].

قال الزجاج: (المعنى ما في صدورهم إلا كبر ما هم إرادتهم فيه قدرة على الحذف)[٢].

وقال غيره: المعنى ما هم ببالغي الكِبْر على غير حذف، لأن هؤلاء قوم رأوا أنهم إن اتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم قل ارتفاعهم ونقصت أحوالهم وإنهم يرتفعون إذا لم يكونوا تبعاً، فأعلم الله عزّ وجل أنهم لا يبلغون الارتفاع الذي أملوه بالتكذيب، والمعنى: أن تعظموا عن إتباع محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا: إن الدجال سيخرج عن قريب فيرد الملك إلينا وتسير معه الأنهار وهو آية من آيات الله فذلك كبر لا يبلغونه، فنزلت الآية فيهم، قاله أبوالعالية[٣].

وقال مجاهد: معناه في صدورهم عظمة ما هم ببالغيها.

قال ابن قتيبة[٤]: تكبر على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وطمع أن يبلغوه وما هم ببالغي ذلك.

وقيل: المراد بالكبر الأمر الكبير، أي يطلبون النبوة ويطلبون أمراً كبيراً ويصلون إليه من القتل ونحوه ولا يبلغون ذلك[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم٢/١٦٥.

(٢) معاني القرآن٢/١٥٢.

(٣) أبوالعالية: رفيع بن مهران، الأمام، المقرئ، الحافظ، المفسر، أبوالعالية، الرياضي، البصري، أحد الأعلام، كان مولى لامرأة من بني رياح بن يربوع ثم من بني تميم، أدرك زمان النبي صلى الله عليه وسلم وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق ودخل عليه، وسمع من عدد من الصحابة، حفظ القرآن وقرأه على أبي بن كعب، توفي سنة٩٣هـ، سير أعلام النبلاء٤/٢٠٧.

(٤) ابن قتيبة: عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبومحمد (٢١٣هـ-٢٧٦هـ)، من أئمة الأدب من المصنفين المكثرين، ولد ببغداد وسكن الكوفة ثم ولي قضاء الدينور مرة فنسب إليها، توفي ببغداد، من كتبه: تأويل مختلف الحديث، أدب الكاتب والمعارف، كتاب المعاني وعيون الأخبار، الشعر والشعراء، مشكل غريب القرآن، تفسير غريب القرآن، وغيرها، الأعلام٤/١٣٧.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن٨/١٥/٣٢٤، فتح البيان، القنوجي١٢/٢٠٢، الدر المنثور في التفسير بالمأثور٧/٢٤/٢٩٤.

يقول الطبري: (إن الذين يخاصمونك يا محمد فيما أتيتهم به من عند ربك من الآيات بغير حجة جاءتهم من عند الله بمخاصمتك فيها، ما في صدروهم إلا كبر يتكبرون من أجله عن إتباعك وقبول الحق الذي أتيتهم به، حسداً منهم على الفضل الذي أتاك الله والكرامة التي أكرمك بها من النبوة، والذي حسدوك عليه أمر ليسوا بمدركيه ولا نائليه، لأن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وليس بالأمر الذي يدرك بالأماني)[1].

ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال من يجادل في الكتاب بغرض إبطاله وإخفاء نوره ثم أرشد رسوله ألا يغتر بأحوال أولئك المجادلين وتركهم سالمين في أبدانهم وأموالهم ينصرفون في البلاد للتجارة ولسعة الرزق والتمتع بزخرف الدنيا، قال تعالى ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغُرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾[2].

ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا وجدالهم فيها قولهم مرة سحر ومرة شعر ومرة أساطير الأولين ومرة إنما يعلمه بشر جدال بالباطل.

قال السدي[3]: ما يجادل أي يماري، وأما ما يقع بين أهل العلم من النظر فيها واستيضاح معانيها واستنباط الأحكام والعقائد منها ومقارعة أهل البدع بها فذلك فيه الثواب الجزيل[4].

وإلى هذا ذهب المراغي مضيفاً: أولئك الذين جحدوا به وأعرضوا عن الحق مع ظهوره وهذا النوع من الجدل هو المذموم وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: (لا تماروا في القرآن فإن المراء فيه كفر)[5]، وأما الجدل لتقرير الحق وإيضاح الملتبس وكشف المعضل واستنباط المعاني، ورد أهل الذيغ بها ورفع اللبس ودفع ما

---

(١) جامع البيان١٢/٢٤/٧٦.

(٢) سورة غافر، الآية (٤).

(٣) السدي: إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي كريمة الهاشمي السدي، الكبير أبومحمد الكوفي الأعور، صاحب التفسير، أصله حجازي، مولى زينب بنت قيس بن محزمة، من بني المطلب بن عبدمناف، يكنى أبا محمد، روى عن ابن عباس وأنس وطائفة، وعنه أبوعوانة، والثوري والحسن بن صالح وأبوبكر بن عياش وخلق، من الطبقة الرابعة، توفي سنة١٢٧هـ، طبقات المفسرين١/١٠٩.

(٤) تفسير البحر المحيط، ابن حيان٧/٤٤٩.

(٥) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده، حديث رقم١١٣٢٠، ٤/١٧٠.

يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن فهو وظيفة الأنبياء ومنه قوله ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾[1].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص[2] قال: (هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية فخرج يعرف في وجهه الغضب فقال: إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب)[3][4].

ولما حكم سبحانه وتعالى على المجادلين في آيات الله بالكفر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغتر بشيء من حظوظهم الدنيوية فقال (فَلَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ) أي فلا يغررك ما يفعلونه من التجارة النافعة في البلاد وما يحصلون عليه من المكاسب في رحلة الشتاء ورحلة الصيف ثم يرجعون سالمين غانمين، فإنهم معاقبون عما قليل وهم وإن أمهلوا فإنهم لا يهملون[5].

قال الزجاج: (لا يغررك سلامتهم بعد كفرهم فإن عاقبتهم الهلاك)[6].

قال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾[7]، أي الذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون بالحجج بغير دليل وحجة معهم من الله،

---

(١) سورة هود، الآية (٣٢).

(٢) عبدالله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي القرشي، السري، كنيته أبومحمد عند الأكثر، فقد بصره في آخر عمره، وقال أبوهريرة: ما أجد أحد من أصحاب رسول الله أكثر حديثاً إلا ما كان من عبدالله بن عمرو بن العاص، مات بالشام سنة خمس وستين، الإصابة في تمييز الصحابة٣٥٣/٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، ٣٧-كتاب العلم، ١-باب النهي عن إتباع متشابه القرآن والتحذير عن متبعيه، حديث رقم٢٦٦٦، ٢٠٥٣/٣.

(٤) تفسير المراغي٣٤/٢٤/٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن٢٩٢/١٥/٨.

(٦) معاني القرآن١٣٤/٢.

(٧) سورة غافر، الآية (٣٥).

فإن الله يمقت على ذلك أشد المقت، والمؤمنون أيضاً يبغضون من تكون هذه صفته، يطبع الله على قلبه فلا يعرف بعد ذلك معروفاً ولا ينكر منكراً ولهذا قال ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ أي على أتباع الحق جبار[1].

وعهد في سيرة البشر أن الأمة توعظ وتنذر، فتتعظ وتتدبر، فإذا طال عليها الأمد بعد النذير تقسو القلوب ويذهب أثر الموعظة من الصدور، وتفسق عن أمر ربها، وتنسى ما لم تعمل به مما أنذرت به أو تحرفه عن موضعه بضروب التأويل وزخرف القال والقيل، ولقد يكون للمتأخر منها بعض العذر لجهله بما فعل المتقدم، وأخذه ما يؤثر عنه بالتسليم لكمال الثقة وحسن الظن.

بين الله سبحانه وتعالى هذه السنة الاجتماعية في سورة الحديد بقوله﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾[2]، ولهذا كان تعالى يرسل الرسل بعضهم في أثر بعض حتى لا يطول أمد الإنذار على الناس فيفسقوا ويضلوا، ولا يعرف التاريخ شعباً جاءت فيه الرسل تترى كشعب بني إسرائيل، لذلك كانوا بمعزل عن صحة العذر بطول الأمد على الإنذار، وفي ناحية عما يرجى قبوله من التعلل والاعتذار، ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[3][4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم٢/١٦٢.

(٢) سورة الحديد، الآية (١٦).

(٣) سورة البقرة، الآية (٨٧).

(٤) تفسير القرآن الكريم، محمد رشيد رضا، خرج أحاديثه وشرح غريبه إبراهيم شمس الدين، ط١(١٤٢٠هـ-١٩٩٩م)، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ٣٠٧/١.

ينعت الله تعالى بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء، وإنهم إنما يتبعون أهوائهم، فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب وهو التوراة فحرفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها بشريعته كما قال ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[1].

ولهذا قال تعالى (وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ) قال السدي: اتبعنا وقال غيره أردفنا، كما قال تعالى ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَا﴾[2] حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم فجاء لمخالفة التوراة في بعض الأحكام ولهذا أعطاه الله من البينات وهي المعجزات.

قال ابن عباس: من إحياء الموتى وإبراء الأسقام وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله وإخباره بالغيوب وتأييده بروح القدس وهو جبريل عليه السلام، ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به فاشتد تكذيب بني إسرائيل لهم، وحسدهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض كما قال تعالى إخباراً عن عيسى ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[3].

فكانت بني إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ معاملة ففريقاً يكذبونه وفريقاً يقتلونه، (أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ) إنما لم يقل وفريقاً قتلتم لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضاً لأنهم حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم بالسم والسحر، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (ما زالت أكلة خيبر تعاودني هذا إيوان انقطاع أبهري[4])[1][2].

---

(١) سورة المائدة، الآية (٤٤).

(٢) سورة المؤمنون، الآية (٤٤).

(٣) سورة آل عمران، الآية (٥٠).

(٤) أبهري: الأبهر الظهر، وعرق فيه وريد العنق، والأبهر الجانب الأقصر من الريش وظهر سنية الفرس أو ما بين طائفها، القاموس المحيط، ص٤٥٣.

المبحث الثالث
نماذج من الذين
صرفهم الكِبْر عن الحق

وبه مطلبان:

المطلب الأول: غرور وتكبر إبليس وفرعون.

المطلب الثاني: كفار قريش والأمم الغابرة.

---

(١) أخرجه الهندي في كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، الهندي (ت:٩٧٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢(١٤٢٢هـ-٢٠٠٠م)، كتاب الفضائل، حديث رقم٣٤١٨٦، ٢١١/١١.

(٢) تفسير القرآن العظيم١/٨٥.

المطلب الأول
غرور وتكبر إبليس وفرعون

أولاً: إبليس عليه لعنة الله:

إن من أقوى ما يستشهد به على الغرور والكِبْر وما يؤول إليه صاحبه هو غرور وتكبر إبليس اللعين، وما كان تكبره وغروره إلا لعظمة وعلو رآها لنفسه ولتميز وضعة، ناسياً قدرة الله سبحانه وتعالى عليه وعلى غيره من الخلق، حين أمره سبحانه وتعالى فعصى ربه وما سول له ذلك هو تصلفه وغروره ﴿ وَإِذ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1].

لم يقل قلت لأن الجبار العظيم يخبر عن نفسه بفعل الجماعة تفخيماً، وأشار بذكره **(ٱسْجُدُوا)** السجود في كلام العرب التذلل والخضوع، **(ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ)** هذا يدل على أنه أفضل منهم، والحكمة من الأمر بالسجود إن الملائكة لما استعظموا بتسبيحهم وتقديسهم، أمرهم بالسجود لغيرهم ليريهم استغناءه عنهم وعن عبادتهم وقال بعضهم: عيروا آدم واستصغروه ولم يعرفوا خصائص الصنع به فأمروا بالسجود له تكريماً ويحتمل أن يكون الله تعالى أمرهم بالسجود له معاقبة لهم على قولهم ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾[2] لما قال لهم تعالى ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[3] وكان علم عنهم أنه إن خاطبهم أنهم قائلون هذا، فقال لهم إني خالق بشراً من طين ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[4]، والمعنى

---

(١) سورة البقرة، الآية (٣٤).

(٢) سورة البقرة، الآية (٣٠).

(٣) سورة البقرة، الآية (٣٠).

(٤) سورة الحجر، الآية (٢٩).

ليكون ذلك عقوبة لكم في ذلك الوقت على ما أنتم قائلون لي الآن، فسجدوا وامتثلوا لما أمروا به[1].

امتثل الملائكة كلهم لأمر الله سبحانه وتعالى **(إِلَّآ إِبۡلِيسَ)** اختلف أهل التأويل في إبليس هل هو من الملائكة أم هو من غيرهم؟!.

روى قتادة: أنه كان من أفضل صنف من الملائكة يقال لهم الجنة.

ويقول سعيد بن جبير: أن الجن سبط من الملائكة خلقوا من نار وإبليس منهم وخلق سائر الملائكة من نور.

ويقول أبوزيد والحسن وقتادة: إبليس أبوالجن كما أن آدم أبوالبشر.

وقول الجمهور ابن عباس وابن مسعود وابن جريج وابن المسيب وقتادة وغيرهم: أنه كان من الملائكة[2].

ورجح الطبري هذا القول قائلاً: هذه علل تبنى عن ضعف معرفة أهلها وذلك أنه غير مستنكر أن يكون الله جلّ ثناؤه خلق أصناف ملائكته من أصناف من خلق شتى، فخلق بعضاً من نور وبعضاً من نار، وبعضاً مما شاء من غير ذلك وليس فيما نزل الله جلّ ثناؤه الخبر عما خلق منه ملائكته، وإخباره عما خلق منه إبليس بما يوجب أن يكون إبليس خارجاً عن معناهم، إذ كان جائزاً أن يكون خلق صنفاً من ملائكته من نار كان منهم إبليس وأن يكون أفرد إبليس بأن خلقه من نار السموم دون سائر ملائكته وكذلك غير مخرجه أن يكون كان من الملائكة بأن كان له نسل وذرية لما ركب فيه من الشهوة واللذة التي نزعت من سائر الملائكة لما أراد الله به من المعصية[3].

قال تعالىٰ ﴿ **وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ * قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا**

---

(١) زهرة التفاسير، للإمام أبوزهرة (١٨٩٨م-١٩٧٤م) دار الفكر العربي، القاهرة، ١/٢٠٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١/١/٢٠٣.

(٣) جامع البيان ١/١/٢٢٤.

يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾[1]، وهذا كقوله تعالى ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ * فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[2].

وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب وصوره بشراً سوياً ونفخ من روحه أمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الله تعالى وجلاله فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس[3].

وقلنا للملائكة اسجدوا لآدم ابتلاءاً منا واختباراً لهم بالأمر ليعلم الطائع منهم من العاصي[4].

أشار القرآن الكريم في هذه الآية إلى تميز الطبيعة البشرية في خلقها وإعدادها لتكون أهلاً للسيطرة والتمكن في الأرض **(وَلَقَد خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ)** أي أوجدناكم وأعددناكم إعداداً خاصاً متميزاً، ومن أجل هذا الإعداد الخاص المتميز الذي أصبح به الإنسان أفضل من غيره أمرنا الملائكة بالطاعة والخضوع لآدم أبي البشر، وذلك بالسجود له فأطاعوا ما أمروا به، عدا إبليس فإنه أبى ولم يكن من الساجدين إنما عصى تكبراً، قال **(قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ)** هنا سأله ربه عن سبب امتناعه عن الاستجابة لأمره وعصيانه في السجود لآدم وكان جوابه أن أصل نشأته خير من أصل نشأة الإنسان . هو آدم . فأصله من النار بينما أصل آدم من طين والنار أفضل من الطين، هكذا كانت نظرة إبليس وهي نظرة مادية بحتة، فهو لم ينظر في خلق الإنسان إلى القوة الروحية به، إلى قوة الفعل والإدراك والتميز، وهي التي كانت سبب تفضيله على الملائكة وسبب اختياره لسكنى الأرض[5].

---

(١) سورة الأعراف، الآيات (١١-١٣).

(٢) سورة الحجر، الآيتان (٢٧-٢٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم٢/٨/٢١١.

(٤) جامع البيان٧/٨/١٢٧.

(٥) تفسير سورة الأعراف، القرآن في مواجهة المادية، محمد البهي، الناشر مكتبة وهبة، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط٢ (رمضان١٤٠٠هـ يوليو١٩٨٠م)، ص١٣.

(قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ) أي صرفك إلى أن لا تسجد (إِذْ أَمَرْتُكَ) فيه دلالة على أن مطلق الأمر بالوجوب والفور كما في قوله تعالى ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾[1]، وقوله ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[2] واختلاف الحكايات يدل على أن اللعين قد درج في معصيته ثلاث معاصي:

١- مخالفة الأمر ومفارقة الجماعة.

٢- الإباء عن الانتظام في سلك أولئك المقربين.

٣- الاستكبار مع تحقير آدم عليه السلام.

(قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ) مشعراً أن من شأنه هذا لا يحسن أن يسجد لمن دونه (خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ) تعليل لما ادعاه من الفضل[3].

قال فأهبط فما يكون لك أن تتكبر فيها وتعصي (فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ) أي من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه لتكبرك، عن عمر رضي الله عنه: (من تواضع لله رفع الله حكمته وقال أنعش نعشك الله ومن تكبر وعدا طوره الله إلى الأرض)[4][5].

وتتابعت الآيات في ذكر قصة إبليس وتعنته وكبره وتعاليه يقول تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾[6]

---

(١) سورة الحجر، الآية (٣٢).

(٢) سورة "ص"، الآية (٧٥).

(٣) تفسير أبوالسعود١٥٨/٢.

(٤) أخرجه البيهقي في الجامع لشعب الإيمان، باب في حسن الخلق، فصل في التواضع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، حديث رقم٨١٣٩، ٢١٦/٣.

(٥) تفسير الكشاف٣٥٦/٨.

(٦) سورة الحجر، الآيات (٢٨-٣٠).

﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ * قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾[1].

(وَإِذ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا) أي جسماً من جنس البشر مأخوذ من مباشرته للأرض أو من كونه بادي البشرة، وقوله (مِن طِينٖ) متعلق بمحذوف هو صفة بشر أو بخالق، (فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ) صورته على صورة البشر وصارت أجزاؤه مستوية (وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي) أي من الروح الذي أملكه ولا يملكه غيري (فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ) والسجود هنا سجود تحية لا سجود عبادة (كُلُّهُمۡ) يفيد أنهم سجدوا جميعاً ولم يبق منهم أحد، وقوله (أَجۡمَعُونَ) يفيد أنهم جميعاً اجتمعوا على السجود في وقت واحد فالأول لقصر الإحاطة والثاني لقصر الاجتماع[2].

قال صاحب الكشاف: فأفادوا معاً أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجد وأنهم سجدوا في وقت واحد غير متفرقين في أوقات[3].

(قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ) أي صرفك وصدّك عن أن تسجد لما خلقت بيدي، أضاف خلقته إلى نفسه تكريماً له وإن كان خالق كل شيء، فذكر مجازه لما خلقت أنا كقوله ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ﴾[4] أي يبقى ربك، وقيل أراد باليد القدرة ويدل عليه أن الخلق لا يقع إلا بالقدرة بالإجماع[5].

---

(١) سورة "ص"، الآيتان (٧٤-٧٥).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن١٥/٢٢٨، فتح القدير ٤/٦٣٢.

(٣) تفسير الكشاف٨/٣٥٥.

(٤) سورة الرحمن، الآية (٢٧).

(٥) الجامع لأحكام القرآن١٢/٢٢٩.

(أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ) استكبرت بنفسك حتى أبيت السجود أم كنت من قوم يتكبرون فتكبرت عن السجود لكونك من قوم يتكبرون[1].

ويتضح من ذلك أن تمرد إبليس عن طاعة ربه، وانحيازه إلى تهلكة الكفر من آثار خلق الكِبْر في نفسه والباعث له على الكفر انحراف خلقي جرثومته الكِبْر والعجب بنفسه، وقد جره ذلك إلى إصراره على الباطل وعدم التوبة والرجوع إلى الحق، فكانت عقوبته من جنس ذنبه إذ طرده سبحانه وتعالى من مواطن رحمته، وجعله من الصاغرين.

ثانياً: فرعون:

صورة أخرى للغرور والاستكبار غرور واستكبار فرعون، فقصة فرعون مع موسى نبي الله عليه السلام كثيراً ما يذكرها تعالى في كتابه العزيز لأنها من أعجب القصص، ففرعون حذر من أن يأتي من ينزله عن تسلطه وما يدعوه إلى الغرور من إدعائه الربوبية، متمثلاً في قدوم نبي يسخره القدر أن تربى هذا الذي يحذر منه على فراشه وسيدنا موسى عليه السلام وعلى مائدته بمنزلة الابن وترعرع ورزقه الله النبوة والرسالة، وبعثه إليه ليدعوه إلى عبادة الله سبحانه وتعالى ربه الواحد الأحد الذي لا شريك له، ليدعي فرعون أنه هو الإله وهو الرب المعبود، وليس لموسى وزيراً سوى أخاه هارون عليه السلام.

قال تعالى ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾[2].

قال ابن كثير: ثم بعثنا من بعد تلك الرسل موسى وهارون بحججنا وبراهيننا (فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) أي استكبروا عن إتباع الحق والانقياد له وكانوا قوماً مجرمين[3].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، أبوالفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت:٥٩٧هـ)، ط١(١٤٠٧هـ-١٩٨٧م)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ٣٤٩/٦.

(٢) سورة يونس، الآية (٧٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم٤٤٢/١١/٢.

تمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية وادعى ما ليس له وعتا وبغى﴿ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[1].

لما رأى فرعون آيات موسى عليه السلام خاف ميل القوم إليه فجمع قومه فقال: يجوز أن يكون عنده عظماء القبط[2]، فرفع صوته بذلك فيما بينهم ثم نشر عنه في جموع القبط كأنه نودي من بينهم، قال جرير: إنه أمر من ينادي في قومه[3].

أليس لي ملك مصر[4]، لا ينازعني فيه أحد، قيل إنه ملك منها أربعين فرسخاً[5] في مثلها، حكاه النقاش[6]، وقيل أراد بالملك هنا الإسكندرية[7]، (وَهَٰذِهِ

---

(١) سورة الزخرف، الآية (٥١).

(٢) القبط: أهل مصر وإليه تنسب الثياب القبطية، وبالضم على غير قياس وقد تكسر جمعه قباطي ورجل قبطي وهي بهاء ومنهم مارية القبطية أم إبراهيم عليه السلام، ناحية كانت جسر من رأى تجمع النساء، القاموس المحيط، ص٨٨٠.

(٣) جامع البيان١٣/٢٥/٨٠.

(٤) مصر: سميت بمصر بن مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام، وهي من فتوح عمرو بن العاص في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الإقليم الثالث، ولم يذكر عزّ وجل في كتابه مدينة بعينها غير مكة ومصر وهي منازل الفراعنة، ومن مفاخرها مارية القبطية أم إبراهيم عليه السلام، وهاجر أم إسماعيل عليه السلام، بها مشاهد ومزارات يطول شرحها، معجم البلدان٥/١٣٧.

(٥) فرسخ: الفرجة والطويل من الزمان ليلاً أو نهاراً ومقياس قديم من مقاييس الطول يقدر بفلاته أميال، ولكل شي كثير غير منقطع جمع فراسخ، المعجم الوسيط، ص٦٨١.

(٦) النقاش: محمد بن الحسن بن زياد بن هارون، أبوبكر الموصلي النقاش، ولد سنة٢٦٦م، مؤلف كتاب شفاء الصدور في التفسير، وله كتاب الإشارة في غريب القرآن، توفي سنة٣٥هـ، طبقات المفسرين، ٣/٧٥.

(٧) الإسكندرية: هي الإسكندرية العظمى التي ببلاد مصر حالياً في الإقليم الثالث، فتحت سنة عشرين من الهجرة في أيام عمر بن الخطاب على يد عمرو بن العاص بعد قتال وممانعة وفتحت ثانية في عهد

ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىَ) يعني أنهار النيل[1] ومعظمها أربعة نهر الملك[2] ونهر طولون[3] ونهر دمياط[4] ونهر تنبس[5].

قال قتادة: كانت جناناً وأنهاراً تجري من تحت قصوره أورده ابن كثير[6].

وقيل من تحت سريره، وقيل من تحت تصرفه فأخذ منها عن غير مانع، وقيل معنى **(وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىَ)** أي القواد والرؤساء والجبابرة يسيرون تحت لوائي، قاله الضحاك.

وقيل أراد بها الأموال وعبرّ عن الأنهار لكثرتها وظهورها، وقوله **(تَجْرِى مِن تَحْتِىَ)** أي أفرقها على من يتبعني لأن الترغيب والقدرة في الأموال دون الأنهار[1].

عثمان على يد عمرو بن العاص الذي سلمها لعبدالله بن أبي السرح ليعود لها في عهد معاوية، معجم البلدان ١٨٢/١.

(١) النيل: أهم نهر في أفريقيا، وثاني أطول نهر في العالم، يتألف من رافدين كبيرين النيل الأبيض الذي ينبع من بحيرة فكتوريا في وسط أفريقيا، والنيل الأزرق الذي ينبع من بحيرة تانا في الحبشة، ويلتقي هذا الرافدان عند مدينة الخرطوم في السودان، يجري في بلاد النوبة وفي مصر، يبلغ القاهرة، ومنها يتشعب إلى فرعين دمياط شرقاً ورشيد غرباً ويصب في البحر المتوسط، تقع عليه عدة خزانات، انظر: المنجد، ص٧٢١.

(٢) نهر الملك: بالكسر ثم السكون وادٍ بمكة، ولد فيه ملكان من عدي بن عبد مناة بن أد فسمي باسم الوادي، وقيل: هو وادٍ باليمامة بين قرقدي ومهب الجنوب، أكثر أهله بنوجشم من ولد الحارث بن لؤي بن غالب خلفاء بني زهران، ومن ورائه وادي فساح، معجم البلدان١٩٤/٥.

(٣) طولون: مرفأ فرنسي حربي وتجاري على البحر المتوسط، فيه مصانع السفن الحربية ومركز تجارة القمح والصابون، المنجد، ص٤٣٩.

(٤) دمياط: مدينة في مصر على نهر النيل، عاصمة محافظة دمياط، شهيرة بالقماش الدمياطي، حاصرها الصليبيون وفتحوها عام١٢١٩هـ، وكانت ذات أهمية تجارية وإستراتيجية في العصور الوسطى، تشتهر بنسيج الحرير وصناعة الأثاث، وهي ثغر من ثغور الإسلام، وينسب إليها جماعة من أهل العلم، معجم البلدان٤٧٤/٢.

(٥) تنيس: جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط، والفرما في شرقيها، وبحيرتها التي عليها مقدار إقلاع يوم في عرض نصف يوم، ويكون ماؤها أكثر السنة ملحاً لدخول ماء بحر الروم إليه عند هبوب رياح الشمال، وإذا انصرف لنيل مصر في دخول الشتاء وكثر هبوب الريح الغربية حلت البحيرة وحلا سيف البحر الملح فحينئذ يخزنون الماء في جباب لهم، ويعدونه لسنتهم، وينسب إليها خلق كثير من أهل العلم منهم محمد بن علي بن الحسين بن أحمد أبوبكر التنيسي المعروف بالنقاش، معجم البلدان٥١/٢.

(٦) تفسير القرآن العظيم١١٩٢/٢.

أفلا تبصرون أيها القوم ما أنا فيه من النعيم والخير وما فيه موسى من الفقر وعي[٢] اللسان، افتخر بملكه مصر عدو الله وما قد مكن له من الدنيا استدراجاً من الله له، وحسب أن الذي هو فيه من ذلك ناله بيده وحوله، وأن موسى إنما لم يصل الذي يصفه، فنسبه من أجل ذلك إلى المهانة محتجاً على جهلة قومه بأن موسى عليه السلام لو كان محقاً فيما يأتي به من الآيات والعبر ولم يكن ذلك سحراً لأكسب نفسه من الملك والنعمة، مثل الذي هو فيه من ذلك جهلاً بالله واغتراراً منه بإملائه إياه[٣].

استكبر فرعون وجنوده في أرض مصر عن تصديق موسى وإتباعه على ما دعاهم إليه من توحيد الله والإقرار بالعبودية له ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٤].

(بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ) يعني تعدياً وعتواً على ربهم (وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ) يقول: قالوا أنهم لو ماتوا لا يبعثون ولا ثواب ولا عقاب فركبوا أهواءهم ولم يعلموا أن الله لهم بالمرصاد وأنه لهم مجاز على أعمالهم الخبيثة، وقوله (فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ) يقول تعالى ذكره: فجمعنا فرعون وجنوده من القبط (فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ) يقول فألقيناهم في البحر ففرقناهم فيه (فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ) فانظر يا محمد بعين قلبك كيف كان أمر هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بربهم[٥].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن٨/١٦/٩٦.

(٢) عيّ: يعي عياً وعياءً: عجز عنه ولم يطق إحكامه أو لم يهتد لوجه مراده، أي جهل وعيا في النطق، حصر أي أتى بكلام لا يهتدى به، المنجد، ص٥٤٢.

(٣) جامع البيان١٣/٢٥/٨١.

(٤) سورة القصص، الآيتان (٣٩-٤٠).

(٥) جامع البيان١١/٢٠/٧٨.

وهكذا نجى الله سبحانه وتعالى بإهلاكه فرعون بني إسرائيل من بغيه وظلمه ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[1].

أي أخلصناهم بإهلاك عدوهم مما كانوا فيه من الاستعباد وقتل الأبناء واستحيا النساء وتكليفهم الأعمال الشاقة وقوله (مِن فِرْعَوْنَ ۚ) يدل على عذاب فرعون وإما على المبالغة كأنه نفس العذاب، فأبدل منه أو على أنه حال من العذاب تقديره صادراً من فرعون (إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ) أي كان عالياً في التكبر والتجبر من المسرفين في الكفر بالله وارتكاب معاصيه كما في قوله ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2] ولما بين سبحانه كيفية دفعه للصد عن بني إسرائيل بين ما أكرمهم به فقال ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3][4].

العذاب المهين قتل الأبناء واستخدام النساء فإنه كان متجبراً[5].

---

(١) سورة الدخان، الآيتان (٣٠-٣١).

(٢) سورة القصص، الآية (٤).

(٣) سورة الدخان، الآية (٣٢).

(٤) فتح القدير، الشوكاني٤/٨١٨.

(٥) زاد المسير في علم التفسير٧/١١٧.

المطلب الثاني
كفار قريش والأمم الغابرة

مصارع الغابرين كثيرة في تاريخ البشرية وبعضها ما تزال له آثار تحكي قصته، وبعضها حفظته الروايات على الألسنة أو حفظته الأوراق والكتب، والقرآن كثيراً ما يوجه القلوب إليها لما فيها من دلالة على حقائق ثابتة في سير البشرية، ولما لها من أثر على النفس الإنسانية عميق، فالقرآن يخاطب البشر موضحاً لهم قصص تلك الأمم للاعتبار لذوي النظرة السليمة قال تعالى ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾[1].

فعاد[2] قوم هود استكبروا على ربهم وتجبروا تكبراً وعتواً وقالوا من أشد منا قوة؟ أولم يروا الله الذي أعطاهم ما أعطاهم من القوة أشد منهم قوة، فهم استعلوا على من في الأرض بغير الحق، أي بغير استحقاق ذلك الذي وقع منهم من

---

(١) سورة فصلت، الآيتان (١٥-١٦).

(٢) عاد بن عوص: من العرب العاربة البائدة، هم بنو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، ويقال لعاد هؤلاء عاد الأولى، وكانت منازلهم بالأحقاف وهو الرمل ما بين عمان إلى الشجر إلى حضرموت إلى عدن، ومن بطونهم عاد بن معاوية وهم بنو بكر بن مارية ويقال لهم عاد الأخرى، معجم قبائل العرب ٢/٧٠٠.

التكبر والتجبر **(وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)** وكانوا ذوي أجسام طوال وقوة شديدة فاغتروا بأجسامهم، ومرادهم بهذا القول أنهم قادرون على دفع ما ينزل بهم من العذاب فرد تعالى عليهم بقوله **(أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً)** أولم يعلموا بأن الله أشد منهم قدرة، فهو قادر على أن ينزل بهم من أنواع عقابه ما شاء[1].

(فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحًا صَرۡصَرًا) قال مجاهد: إنما هو صوت الريح إذا هبت بشدة تسمع لها كقول القائل صرر **(فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ)** أيام مشائيم ذات نحوس لأن ذلك هو المعروف في معنى النحس في كلام العرب.

اختلفت القراءة في ذلك فقرأته عامة قراء الأمصار غير نافع[2] وأبي عمرو (نحسات) بكسر الحاء قراءه نافع وأبوعمرو (نحسات) بسكون الحاء وكان أبوعمرو فيما ذكر عنه يحتج لسكينة الحاء بقوله ﴿ فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴾[3] وأن الحاء فيه ساكنة[4].

(رِيحًا صَرۡصَرًا) قال أبوعبيدة[5]: معنى صرصر شديدة عاصفة، وقال

---

(١) فتح القدير، الشوكاني٤/٧٢٧.

(٢) نافع: هو نافع بن عبدالرحمن بن أبي القيم، أبورديم، الليثي بالولاء (٧٠هـ-١٦٩م)، أحد الأعلام، ثقة، صالح، أصله من أصبهان، كان أسود حالكاً، قبيح الوجه، حسن الخلق، فيه دعابة، أخذ القراءة من جماعة من تابعي أهل المدينة حتى بلغ شيوخه السبعين، أخذ القراءة عنه خلق كثير من مختلف الأنصار، طبقات القراء ١/٥١.

(٣) سورة القمر، الآية (١٩).

(٤) معجم القراءات، د.عبداللطيف الخطيب، دار سعد الدين للطباعة والنشر، ٢/٢٧٠.

(٥) أبوعبيدة: هو معمر بن المثنى التميمي بالولاء البصري، أبوعبيدة النحوي، مولده ووفاته في البصرة عام (١١٠هـ-٢٠٩هـ)، من أئمة العلم بالأدب واللغة، استخدمه هارون الرشيد على بغداد سنة١٨٨هـ، وقرأ عليه أشياء من كتبه، كان أباضياً من حفاظ الحديث، وله عدة مؤلفات، الأعلام٧/٢٣٢.

الفراء: هي الباردة تحرق كما تحرق النار، وقال عكرمة[١] وسعيد بن جبير وقتادة: هي الباردة، وأنشد قطرب[٢] قول الحطيئة[٣]:

المطعمون إذا هبت بصرصرة ** والحاملون إذا استعودوا عن الناس[٤]

قال ابن السكيت: صرصر يجوز أن يكون من الصر وهو البرد، ويجوز أن يكون من صرصر الباب ومن الصرّة وهي الصيحة، ومنه قوله ﴿ **فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ**﴾[٥]،(**لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا**) والخزي هو الذل والهوان بسبب ذلك الاستكبار (**وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ**) أي أشد إهانة وإذلالاً، (**وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ**) يقول (**وَهُم**) بمعنى عاد (**لَا يُنصَرُونَ**) من الله يوم القيامة إذا عذبهم ولا ناصر ينقذهم أو ينتصر لهم[٦].

ثم ذكر حال الطائفة الأخرى فقال ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ *وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ * وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ** ﴾[٧] أي بينا

---

(١) عكرمة: هو العلامة الحافظ، مولى ابن عباس، أبوعبدالله، حدث عن ابن عباس وأبا سعيد وعائشة وأبوهريرة وعبدالله بن عمر، روى عنه جماعة من التابعين منهم الشعبي وإبراهيم النخعي ومحمد بن سيرين وجابر بن زيد، توفي سنة١٠٥هـ، معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق د.إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٤٣م، ١٦٢٧/٤.

(٢) قطرب: محمد بن المستنير بن أحمد بن علي المعروف بقطرب البصري، النحوي، اللغوي، أحد أئمة النحو واللغة، أخذ النحو عن سيبويه، وأخذ عنه عيسى بن عمر وجماعة من علماء البصرة، كان معتزلي، توفي ببغداد سنة٢٦٠هـ، وله عدة تصانيف، معجم الأدباء٢٦٤٦/٦.

(٣) الحطيئة (ت:٤٥هـ-٦٦٥م) جردل بن أوس بن مالك العبسي، شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، كان عنيفاً، لم يكد يسلم من لسانه أحد، وهجا كل أهله حتى أباه وأمه، نهاه عمر بن الخطاب عن الهجاء فقال: إذاً تموت عيالي جوعاً وله ديوان شعر، الأعلام١١٨/٢.

(٤) تفسير الفخر الرازي١٥/٣٠/١٤١.

(٥) سورة الذاريات، الآية (٢٩).

(٦) تفسير الفخر الرازي١٥/٣٠/١٤١.

(٧) سورة فصلت، الآيات (١٧-١٩).

لهم سبيل النجاة ودللناهم على طريق الحق بإرسال الرسل إليهم ونصب الدلالات لهم من مخلوقات الله فإنها توجب على كل عاقل أن يؤمن بالله ويصدق رسله.

قال الفراء: معنى الآية دللناهم على مذهب الخير بإرسال الرسل **(فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ)** أي اختاروا الكفر على الإيمان، اختاروا العمى على البيان.

قال السدي: اختاروا المعصية على الطاعة فأخذتهم صاعقة[1]، العذاب الهون، كأن قال: أصابهم مهلك العذاب **(وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ)** وهم صالح عليه السلام ومن معه من المؤمنين، وذكر أيضاً عقابهم في الآخرة **(وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ)** وهو في وصفهم أعداء الله مبالغة في ذمهم[2].

وغرور قوم نوح في قوله ﴿ **قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا** ﴾[3] أن قومه ضموا إلى عصيانه معصية أخرى وهي طاعة رؤسائهم الذين يدعونهم إلى الكفر، وقوله **(مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا)** يعني هذان وإن كانا من جملة المنافع في الدنيا إلا أنهما صارا سبباً للخسار في الآخرة فكأنهما صارا محض الخسار، والأمر كذلك في الحقيقة لأن الدنيا في جنب الآخرة كالعدم، فإذا صارت المنافع الدنيوية أسباباً للخسار في الآخرة صار ذلك جارياً مجرى اللقمة الواحدة من الحلو إذا كانت مسمومة[4].

---

(١) صاعقة: الموت وكل عذاب مهلك، وصيحة العذاب والجزات الذي بيد الملك سائق السحاب لا يأتي على شيء إلا أحرقه أو نار تسقط من السماء، وصعقتهم السماء وصاعقة مصدر كراعية، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١١٦٣.

(٢) تفسير الفخر الرازي١٥/٣٠/١٤١.

(٣) سورة نوح، الآية (٢١).

(٤) فتح القدير، الشوكاني٢/٤٢٠.

قال الجزائري في الآية: أي أطيعوني فيما دعوتهم إليه وأمرتهم من عبادتك وحدك وترك الشرك بك وأتبعوا . أي السفلة منهم والفقراء . من لم يزده ماله وولده . أي الرؤساء منهم . إلا طغياناً وكفراً[1].

ولم ينفع وينجي المال قارون من الهلاك الذي لحق به بسبب تكبره وغروره ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾[2].

وقال قارون لقومه الذين وعظوه: إنما أوتيت هذه الكنوز على فضل علم عندي، علمه الله مني فرضي بذلك عني وفضلني بهذا المال عليكم لعلمه بفضلي عليكم.

قال ابن زيد[3]: يقول لولا رضا الله عني ومعرفته بفضلي عليكم لما أعطاني هذا كأنه قال: إنما أوتيته لفضل علي فيما أرى[4].

أي أنا لا افتقر إلى ما تقولون، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني استحقه ولمحبته لي، فتقديره إنما أعطيته لعلم الله بأني أهل له[5].

إنها قولة المغرور المطموس، الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها ويفتنه المال ويعميه الثراء، وهو نموذج مكرر في البشرية، فكم من الناس من يظن أن علمه وكده وهما وحدهما سبب غناه، ومن ثم فهو غير مسئول عما ينفق وما يمسك،

---

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي العزيز ١٤١١/٢.

(٢) سورة القصص، الآية (٧٨).

(٣) ابن زيد: هو عبدالرحمن بن زيد بن أسلم العدوي، مولاهم المدني، روى عن أبيه وابن المنكدر وعنه أصبغ وقتيبة وهشام، له التفسير، الناسخ والمنسوخ، توفي سنة١٨٢هـ، انظر: طبقات المفسرين ٢٠٥/١.

(٤) جامع البيان، الطبري ١١٤/٢٠/١١.

(٥) تفسير القرآن العظيم ١٠٤/٢.

غير محاسب على ما يفسد بالمال أو يصلح، غير حاسب لله حساباً ولا ناظر إلى غضبه ورضاه[1].

أو لم يعلم إن الله قد أهلك من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً، أو لم يعلم حين زعم إنه أوتي من الكنوز لفضل علم عنده علمته أنا منه فاستحق بذلك أن يؤتي ما أوتى من الكنوز، إن الله قد أهلك من قبله من الأمم من هو أشد بطشاً وأكثر جمعاً للأموال ولو كان يؤتى الأموال من يؤتيه لفضل فيه وخير عنده لم يكن يهلك من أهلك من أرباب الأموال الذين كانوا أكثر منه مالاً لأن من كان الله عنه راضياً محال أن يهلكه الله وهو عنه راضٍ، وإنما يهلك من كان عليه ساخطاً **(وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ)** يدخلون النار بغير حساب[2].

وفي ذكر قارون وفرعون وهلاكهما اعتبار لكل من تسول له نفسه الغرور بما جمع من مال، وقد ذكر القرآن الكثير من القصص لتكون عبرة، قJال تعالى ﴿**تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ**﴾[3] لا يغني المال وكثرته ولا الولد عن الله شيئاً.

في سبب نزول الآية:

أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى يا صباحاه فاجتمعت إليه قريش[4] فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يديّ عذاب شديد، فقال أبولهب[5]: ألهذا

---

(١) في ظلال القرآن١٥/٢٠/٢٧١٢.

(٢) تفسير المراغي٧/٢٠/٩٥.

(٣) سورة المسد ، الآيتان (١-٢).

(٤) قريش: قبيلة عظيمة، وقيل قريش ولد مالك بن النضر بن كنانة وهم من ولد فهر بن مالك واعتمد النسابون أن أبا قريش هو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ابن إياس بن مضر بن نذار بن معد بن عدنان، وهي قسمين: قريش البطاح وهم ينزلون مكة، وقريش الظواهر وهم خارج الشعب، معجم القبائل٣/٩٤٧.

(٥) أبولهب: أحد أعمام الرسول صلى الله عليه وسلم، واسمه عبدالقوي بن عبدالمطلب، وكنيته أبوعتبة، وسمي أبولهب لإشراق وجهه، وكان كثير الأذية لرسول الله صلى الله عليه وسلم والبغضة له والازدراء به والنقيص له ولدينه، الأعلام١١/٧٣٩.

جمعتنا؟ تباً لك، فأنزل الله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ إلى آخرها[1].

قال النسفي[2]: التباب الهلاك: أي خسرت، خابت وضل عمله وسعيه وتحقق خسارته وهلاكه ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ أي لم يغن عنه ماله ومكسوبه أو كسبه، أي لم ينفعه ماله الذي ورثه من أبيه والذي كسبه بنفسه أو ماله التالد ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ قيل ولده[3].

المعنى العام: ما أغنى عنه ماله ولا ولده من عذاب الله شيئاً وقيل إنه كان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فأنا افتدي منه نفسي بمالي وولدي، فأنزل الله ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾[4].

والقرآن الكريم ينشط الإنسان ويحركه للسير في الأرض بعين بصيرة مفتوحة، وحس متوفر، وقلب بصير، لينظروا ويتدبروا ما كان في الأرض قبلهم ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[5].

---

(١) أسباب النزول، الواحدي، ص٤٠٧.

(٢) النسفي: هو عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي، حافظ، أبوالبركات، فقيه أصولي، مفسر، متكلم، من تصانيفه: عمدة العقائد في الكلام وشرحها وسماها الاعتماد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل في التفسير وغيرها، توفي سنة٧١٠هـ، انظر: تاج التراجم في الطبقات الحنفية، ابن قلوبيا، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٢م، ص٣٠.

(٣) تفسير النسفي، ط١(١٣٨٦هـ-١٩٦٧م)، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، ٦٥/٧.

(٤) الأساس في التفسير ٦٧٤/١١.

(٥) سورة غافر، الآيتان (٨٢-٨٣).

يخبر الله عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر وماذا حلّ بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم، وما آثروه في الأرض وجمعوه من الأموال فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ولا رد عنهم ذرة من بأس الله وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات والحجج القاطعات والبراهين الدافعات لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل.

قال مجاهد: قالوا نحن أعلم منهم لن نبعث ولن نعذب[١]، وقاله السيوطي[٢] أيضاً مضيفاً: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم فأتاهم من بأس الله تعالى ما لا قبل لهم به[٣].

أفلم يسيروا يا محمد هؤلاء المجادلون في آيات الله من مشركي قريش قومك في البلاد فإنهم أهل سفر إلى الشام[٤] وإلى اليمن[٥] رحلتهم في الشتاء والصيف، فينظروا فيما وطنوا من البلاد إلى وقائعنا بمن أوقعنا به من الأمم قبلهم، ويروا ما أحللنا بهم من بأسنا بتكذيبهم رسلنا، وجحودهم بآياتنا كيف كان عقبى تكذيبهم كانوا أكثر منهم، يقول كان أولئك الذين من قبل هؤلاء المكذبين من قريش أكثر عدواً من

---

(١) تفسير القرآن العظيم٢/١١٦٨.

(٢) السيوطي (٨٤٩هـ-٩١٨هـ) عبدالرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين أبي بكر بن الفخر عثمان بن ناصر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن تيم الدين أبي الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام السيوطي، العلامة المشهور، له عدة تصانيف ومصنفات، انظر: طبقات المفسرين٢/٣٦٥.

(٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي٧/٢٤/٣٠٧.

(٤) الشام: سميت بذلك لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض فشبهت بالشامات، وقيل سميت بذلك لأن قوماً من كنعان بن همام خرجوا عند التفريق تشاءموا إليها أي أخذوا ذات الشمال وهي بأرض فلسطين وهي بلاد سوريا وفلسطين وما جاورها من الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية وعرضها من جبل طيء إلى بحر الروم، وبها من أمهات المدن ومدن السواحل والثغور، معجم البلدان٣/٣١١.

(٥) اليمن: سميت باليمن لتيامنهم إليها، وهي أيمن الأرض، حدودها بين عمان إلى نجران ثم يلتوي على بحر العرب إلى عدن إلى الشجر حتى يجتاز عمان والنسبة إليه يمني ويماني، وقيل صفة يمن خضرها لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها والبحر مطبق بها من الشرق إلى الجنوب، معجم البلدان٥/٤٤٧.

هؤلاء وأشد بطشاً وأقوى قوة وأبقى في الأرض آثاراً، لأنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً، ويتخذون مصانع، فلما جاءتهم رسلنا بالبيانات فرحوا جهلاً منهم بما عندهم وقالوا لن نبعث ولن يعذبنا الله وحاق بهم من عذاب الله ما كانوا يستعجلون رسلهم به استهزاء وسخرية(١).

من لطائف الآيات:

أن هؤلاء الكفار الذين يجادلون في آيات الله وحصل الكبر العظيم في صدورهم بهذا، السبب في ذلك كله طلب الرياسة والتقدم على الغير في المال والجاه، فمن ترك الانقياد للحق لأجل طلب هذه الأشياء فقد باع الآخرة بالدنيا، فبين تعالى أن هذه الطريقة فاسدة لأن الدنيا فانية ذاهبة واحتج عليه بقوله تعالى **(أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ)** يعني لو ساروا في أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين المتجبرين ليست إلا الهلاك والبوار، مع إنهم كانوا أكثر منهم عدداً ومالاً وجاهاً من هؤلاء المتأخرين(٢).

وأما الذين جحدوا وحدانية الله سبحانه وتعالى وأبوا إفراده في الدنيا بالألوهية فيقال لهم ﴿ **وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ** ﴾(٣) فاستكبرتم عن استماعها والإيمان بها وكنت قوماً مجرمين تكسبون الآثام والكفر بالله ولا تصدقون عباد ولا تؤمنون بثواب ولا عقاب(٤).

(وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ) يقال لهم توبيخاً وتقريعاً أفلم تكن آياتي تتلى عليكم ودلتكم على ما فيه صلاحكم ونهتكم عما فيه ضرركم وهي أكبر نعمة وصلت إليكم لو وفقتم لها، ولكن استكبرتم عنها، أعرضتم وكفرتم بها، فجنيتم أكبر جناية وأجرمتم أشد الجرم فاليوم تجزون ما كنتم تعملون(٥).

---

(١) جامع البيان١٢/٢٤/٨٨.

(٢) تفسير الفخر الرازي١٤/٢٧/٩١.

(٣) سورة الجاثية، الآية (٣١).

(٤) جامع البيان١٣/٢٠/١٥٧.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٨٨.

ولهـؤلاء المشـركون أيضـاً قولـه تعـالى ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين لهذا القرآن لما جاءهم هذا سحر مبين، أرأيتم إن كان هذا القرآن من عند الله أنزله عليّ كفرتم أنتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله.

اختلف أهل التأويل في ذلك فقال بعضهم: هو موسى بن عمران عليه السلام **(عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ)** يعني على مثل القرآن، قالوا ومثل القرآن الذي شهدوا عليه بالتصديق التوراة.

عن مسروق[2] في هذه الآية: فخاصم به الذين كفروا من أهل مكة بالتوراة مثل القرآن وموسى عليه السلام مثل محمد صلى الله عليه وسلم.

وقال آخرون: عني بقوله **(وَشَهِدَ شَاهِدٞ)** عبدالله بن سلام[3] والصواب أن الأخبار قد وردت عن جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بان ذلك عني به عبدالله بن سلام وعليه أكثر أهل التأويل وهم كانوا أعلم بمعاني القرآن وهذا ما رجحه الطبري[4].

(وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ) العالمين بما أنزل الله في التوراة **(عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ)** أي على مثل القرآن من المعاني الموجودة في التوراة المطابقة له من إثبات

---

(١) سورة الأحقاف، الآية (١٠).

(٢) مسروق بن الأجدع، الإمام، أبوعائشة العمراني، الكوفي، الفقيه، أحد الأعلام، وكان أبوه فارس أهل اليمن في زمانه، وهو ابن أخت البطل عمرو بن معدي كرب، أخذ عن عمر وعلي ومعاذ وابن مسعود وأُبي، وعنه إبراهيم والشعبي وأبوإسحق وخلق، (ت:٦٣هـ)، انظر: تذكرة الحفاظ١/٤٠.

(٣) عبدالله بن سلام بن الحارث بن يوسف من ذرية يوسف النبي عليه السلام، حليف النوافل من الخزرج الإسرائيلي ثم الأنصاري، كان حليفاً لهم، وكان من بني قينقاع، اسمه الحصين، أسلم أول ما قدم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، توفي سنة٤٣هـ، الإصابة في تمييز الصحابة٢/٣٢٠.

(٤) جامع البيان١٣/٢٦/٩.

التوحيد والبعث والنشور وغير ذلك، وهذه المثلية هي باعتبار تطابق المعاني وإن اختلفت الألفاظ، وشهد الشاهد عليه أنه من عند الله.

وكذا قال الواحدي[1]: فآمن الشاهد بالقرآن لما تبين له أنه من كلام الله ومن جنس ما ينزله على رسله وهو عبدالله بن سلام، كما قال الحسن وقتادة ومجاهد وعكرمة.

عن سعد بن أبي وقاص[2] قال: (ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على الأرض أنه من أهل الجنة إلا لعبدالله بن سلام وفيه نزلت (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ))[3].

آمن الشاهد واستكبرتم أنتم عن الإيمان (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ) فحرمهم الله الهداية بظلمهم لأنفسهم بالكفر وبعد قيام الحجة الظاهرة على وجوب الإيمان ومن فقد هداية الله له فقد ضل[4].

---

(١) الواحدي: علي بن أحمد بن محمد بن علي بن أبوالحسن الواحدي، مفسر، عالم بالأدب، نعته الذهبي بإمام علماء التأويل، كان من أولاد التجار، أصله من ساوة بين الري وهمذان، ومولده ووفاته بنيسابور، له عدة مؤلفات منها: الوجيز، وشرح ديوان المتنبي، وأسباب النزول، وشرح الأسماء الحسنى وغيرها، والواحد نسبة إلى الواحد بن الديل بن مهرة، توفي سنة (٤٦٨هـ-١٠٧٦م)، الأعلام٤/٢٥٥، وفيات الأعيان٢/٤٦٤.

(٢) سعد بن أبي وقاص مالك بن وهب بن عبدمناف بن زهرة بن كلاب الأمير، أبوإسحق الزهري البدري، أول من رمي بسهم في سبيل الله، روى عنه بنوه عامر ومصعب وإبراهيم وعمر وعائشة وقيس بن أبي مازن وسعيد بن المسيب وعلقمة وأبوعثمان الهندي وخلق، أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة (ت:٥٥هـ)، تذكرة الحفاظ١/٢٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، باب فضائل الصحابة في مناقب عبدالله بن سلام٢/٣٠٢.

(٤) فتح البيان في مقاصد القرآن، القنوجي١٣/١٦.